محنة المعتمد بن عباد
وأثرها فى الشعر الأندلسى

دكتور

ناجى فؤاد بدوى

الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقد

محنة المعتمد بن عباد وأثرها فى الشعر الأندلسى

بقلم
أ.د/ ناجى فؤاد بدوى

مقدمة البحث

لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ...

وبعد :

فإن محنة المعتمد بن عباد تمثل ملمحا بارزا من ملامح الأدب والثقافة الأندلسية، منذ أن نكب الرجل فى أهله وملكه وماله، وظلت ذات تأثير ملحوظ فى الأدب والثقافة إلى زمن بعيد .

والبحث الذى نقدمه يستعرض صورة هذا التأثير فى الأدب الأندلسى من خلال البوح الشعرى الذى جادت به قريحة المعتمد الشاعر المطبوع على جيد القول، ومن خلال ما فاضت به قرائح الشعراء الأندلسيين: المعاصرين له واللاحقين لزمن هذه المحنة المؤثرة، كل يفصح عن مكنون نفسه، وعما يستشعره حيال هذا الحدث الذى هز وجدانه ، وأثار فى نفسه مختلف المشاعر والأحاسيس .

وقد أتبعت هذه الصورة ببيان بعض الملامح الفنية التى تشكل أبرز سمات الفن الشعرى فى نتاج المعتمد ومشاركيه ممن عرضوا لهذه المحنة .

وقد تقدم هذا كله حديث يعرض لمحنة المعتمد فى سياقها التاريخى يلقى ضوءا كاشفا على هذه المحنة يهدى من يتابع أثرها فى الشعر إلى مقدار توفيق الشعراء فى تصويرها وتصورها، وإلى أى مدى كان توفيقهم .

وعلى الرغم من محدودية المساحة المتاحة فـــى مثـــل هـــذه الأبحاث فقد حاول هذا البحث أن يقدم الصورة كاملة لموضوعه، من خلال الإشارة إلى الحدث والإحالة إلى تفاصيله على مظانه المختلفة.

وعلى الله قصد السبيل ، وهو سبحانه المرجو فى النفع بـــه، والمسئول ــ عزوجل ــ أن يجعله خالصا لوجهـــه، والله مـــن وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل.

دكتور

ناجى فؤاد بدوى

الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقد

-١-

بعد أن تحقق للمسلمين الانتصار الساحق فى معركة الزلاقة[١] يوم الجمعة الثانى عشر من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ، وكان للمعتمد[٢] وجيشه دور بارز فى تحقيق هذا النصر، إلى جانب الدور

---

(١) راجع تفاصيل هذه المعركة فى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ــ ابن عذارى المراكشى ــ تحقيق ج.س كولان، وليفى بروفنسال ــ ط٢ــ دار الثقافة بيروت لبنان : ٤/ ١٣٢ ــ ١٤٠. ودول الطوائف ــ محمد عبدالله عثمان ــ ط٤ ــ مكتبة الخانجى: ٧٨، ٧٩، ٣٢٠ ــ ٣٣٢، ٤٤٦ ــ ٤٥٠ .

وملك إشبيلية الشاعر المعتمد بن عباد ــ دكتور رضا السويسى ــ دار بوسلامة للطباعة والنشر ــ تونس ١٩٨٥م : ٨٦، ٨٧. والروض المعطار نقلا عن المعتمد بن عباد للدكتور عبدالوهاب عزام ــ دار المعارف : ٣٤، ٣٥. والعلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف بالأندلس ــ محمد صالح منصور ــ منشورات جامعة قار يونس ــ بنى غازى ١٩٩٥ : ٧٦، ٧٧، ٨٩ .

(٢) المعتمد على الله : محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمى وكنيته أبوالقاسم ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٤٦١هـ، على مملكة إشبيلية فأضاف إليها كثيرا من الممالك المحيطة بها، فقد ضم إليها قرطبة ومرسية وغيرهما من البلاد ذات الشأن .

لم يهتم أحد من ملوك الطوائف بالشعر كما اهتم به المعتمد، فقد قرب الشعراء وأجزل لهم العطاء حتى صارت مملكة إشبيلية قبلة شعراء الأندلس قاطبة، فلم يجتمع على باب ملك ما اجتمع على بابه من الشعراء والأدباء لكثرة ما كان يجزل لهم العطاء، ولما كان يتمتع به من ملكة شعرية جعلت منه أميرا شاعرا قلما برع من الأمراء فى الشعر براعته،ترك ديوان شعر طبع منه عدة طبعات .

راجع فى ترجمته وفى حياته: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ٢٧ ــ ٣٥ . مطمح الأنفس لابن خاقان: ١١ ــ ٢٢. وسير النبلاء للذهبى ــ مجلد ١٥. ونفح الطيب للمقرى ٢/ ١١٩ وما بعدها. والبيان المغرب لابن عذارى ٣/ ٢٤٤ ، ٢٥٧. والمثل السائر لابن الأثير ١/ ٨٦. وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ٤، ٥. وشذرات الذهب للأصفهانى: ٣/ ٣٨٦. الوافى بالوفيات ٣/١٨٣=.

العظيم الذى قام به جيش المرابطين فى هذه المعركة، أسرع يوسف بن تاشفين[1] فى العودة إلى المغرب، ولم يجب المعتمد إلى رغبته فى متابعة فلول جيش النصارى التى لاذت بطليطلة، مرجئا ذلك إلى وقت لاحق.

وكانت عودة يوسف على هذا النحو المتعجل مثار تساؤل عند المؤرخين قديما وحديثا[2]، إذ لم يكن من المعقول وقد تحقق ما تحقق فى الزلاقة أن يعود يوسف تاركا خلفه هذا العدد الهزيل من جنود المرابطين لتأمين هذا النصر، فقد خلف نحو ثلاثة آلاف رجل أمرهم أن يكونوا تحت إمرة المعتمد[3]، ولكن سرعان ما أبانت

=وخريدة القصر ـ قسم شعراء المغرب ٢/ ٢٥. وكتاب المعتمد بن عباد الإشبيلى للدكتور صلاح خالص. وتراجم إسلامية ـ محمد عبدالله عنان ١٨٦. والمعتمد بن عباد للدكتور عبدالوهاب عزام، وملك إشبيلية الشاعر للدكتور رضا السويسى.

(١) هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجى اللمتونى الحميرى وكنيته أبويعقوب، تولى إمرة الملثمين (المرابطين)، وملك المغرب الأقصى بعد ابن عمه أبوبكر ابن عمر اللمتونى فضم إلى مملكته ممالك كثيرة مثل مملكة فاس، وأنشأ مدينة مراكش (سنة ٤٦٥هـ) واستولى على ممالك الأندلس بعد أن استعان به المعتمد بن عباد فى قتال النصارى، ومن بعدها لقب بأمير المسلمين، كان حازما صارما ضابطا لمصالح مملكته ماضى العزم معتدل القامة، توفى بمدينة مراكش (سنة ٥٠٠هـ) راجع ترجمته فى الأنيس: المطرب. وابن الأثير: ٩/ ٢١٦، ١٠/ ١٤٥. وجذوة الاقتباس: ٣/ ٢٢. وتاريخ ابن الوردى: ٢/ ٤٠٣ . ووفيات الأعيان: ٢/ ٣٦٥ . والمعجب: ١٦٢ . وذكر أن وفاته كانت (سنة ٤٩٣هـ) . والأعلام: ٨/ ٢٢٢ .

(٢) راجع الأسباب التى ساقها الباحثون لعودة يوسف المفاجئة فى: العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف: ٩٩ وما بعدها، ودول الطوائف: ٣٢٩ وما بعدها، والأدب المغربى من خلال ظواهره وقضاياه دكتور عباس الجرارى ـ نشر مكتبة المعرفة بالرباط ـ ط٣ : ١١٢ .

(٣) المصدر السابق والصفحة .

الأحداث بعد ذلك خطأ هذا التصرف، فقد شهد يوسف بنفسه عدم قدرة الأندلسيين على القتال إذا استثنينا المعتمد وجيشه الذى لم يكن فى إمكانه التصدى بمفرده لخطر النصارى[1]، الذى سرعان ما قوى وزاد بعد تلبية كل القوى النصرانية فى أوروبا نداء ألفونسو لمواجهة الزحف الإسلامى القادم من المغرب[2].

نعم حاول ألفونسو بعد أن علم أن يوسف عبر إلى المغرب أن يرد هذه الجيوش الزاحفة التى تجمعت ليقينه أنها لن تحقق طموحاته الشخصية فى الاستئثار بأرض الأندلس، وأنها ستكلفه من المؤونة ما لا قبل له به، غير أنه لم يفلح فى ذلك ، فجاءت هذه الجيوش وبدأت تحدث من التخريب فى شرقى الأندلس[3] ما حمل المعتمد على أن يلبى صريخ إخوانه من ملوك شرقى الأندلس، ويجوز إلى المغرب طالبا من يوسف العودة بجنده لمواجهة هذا الخطر الجديد.

يعتقد أحد الباحثين أن المعتمد أخطأ حين عاود الاستعانة بيوسف لدفع خطر النصارى هذه المرة[4] إذ رسخ عنده الإحساس بضعف ملوك الطوائف وفرقتهم وعدم أهليتهم لحكم هذه البلاد، الأمر الذى سوغ ليوسف أن يعمل منذ عبر إلى الأندلس هذه المرة على اسقاط ملوك الطوائف، وإن كان قد أظهر أن سبب عبوره مواجهة ما أحدثه النصارى فى شرقى الأندلس، ولا عجب "فإن أمير المرابطين لم يكن ليغفل عن فتح الأندلس، وهو مؤمن بدعوة إصلاحية إسلامية

(١) يرى الدكتور السويسى أن مرد ضعف جيش المعتمد يرجع إلى الاعتماد عليه وحده فى مواجهة النصارى يوم الزلاقة، وتباطؤ يوسف فى نجدته بعد أن تفرقت جيوش الأندلس الأخرى مما أدى إلى إهلاك معظم جنده، راجع ملك إشبيلية . الشاعر : ٧٣ .

(٢) راجع دول الطوائف : ٣٣١ .

(٣) راجع العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف : ٩٣ .

(٤) هو الدكتور رضا السويسى. راجع ملك إشبيلية الشاعر: ٨٥ .

يجاهد فى سبيلها، لاسيما والأندلس فى حاجة ماسة إلى من ينقذها من براثن الضياع، ولاسيما كذلك أنه فتح مدينتى سبتة وطنجة، وغدا يشرف منهما على شبه الجزيرة الإيبيرية"[1] ولا نظن أن المعتمد وحده كان غير صادق النية فى الاستعانة بيوسف لدفع خطر النصارى على نحو ما رأى أحد الباحثين[2]، بل كان كلا الرجلين يوسف والمعتمد غير مخلص فيما يطن على الملأ، فكلاهما يطن رغبته فى درء خطر النصارى عن بلاد المسلمين، إلا أنه كان لكل منهما غايته الخاصة التى يريد تحقيقها من وراء دفع خطر النصارى، فالمعتمد كان يريد إعادة سلطانه وبسط نفوذه على نحو ما كان عليه من قبل، فى حين عزم يوسف على أن يضم الأندلس إلى المغرب تحت سلطان المرابطين فكلاهما كان "يسر حسوا فى ارتغاء"[3] فعمل كل من الرجلين على تحقيق مراده، إلا أن قدرة يوسف على انجاز ما يريد كانت أكثر فاعلية من قدرة المعتمد الذى فقد كثيرا من قدراته.

عبر يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة بناء على اتفاقية بينه وبين المعتمد، فاستقبله المعتمد دون بقية ملوك الطوائف الذين

---

(١) الأدب المغربى من خلال ظواهره وقضاياه : ١١١ .

(٢) هو محمد صالح منصور ــ راجع العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف: ٩٥ .

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ــ عبدالواحد المراكشى ــ تحقيق محمد سعيد العريان ــ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية: ١٩٣ ، والمثل يضرب لمن يريك أنه يعنيك وهو إنما يقصد النفع لنفسه، شأن من يؤتى بوعاء اللبن فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة لا يريد غيرها، وفى أثناء ارتغائه يحسو اللبن جرعة جرعة . [هامش صـ١٩٣] .

تثاقلوا عن لقائه بعد أن استشعروا استعلاء يوسف عليهم[1]، فوجه إليهم يوسف من يخبرهم باتفاقيته مع المعتمد التى تتلخص فى مواجهة النصارى شرقى الأندلس لكبح خطرهم واسترداد حصن لييط الذى جعله النصارى منطلقا لكل الهجمات على شرقى الأندلس، فلحق به كل من عبدالله بن بلقين حاكم غرناطة، وأخوه تميم حاكم مالقة، والمعتصم بن صمادح حاكم ألمرية، وعند الحصن أدركهم ابن رشيق حاكم مرسية[2].

غير أن مجئ هؤلاء لم يغن يوسف شيئا، فقد جاؤا بخلافاتهم وخصوماتهم، إذ أخذ كل منهم يشكو إلى يوسف صاحبه ويوقع به عنده، فأخذ أبناء بلقين يشكو كل منهما أخاه إلى يوسف، وأخذ ابن صمادح يكيد للمعتمد، والمعتمد يتهم ابن رشيق بممالأة النصارى، وهكذا استبان ليوسف أن هؤلاء الملوك جميعا لم يعد فيهم غناء لبلادهم، ولم يعد يرجو منهم أى نفع للإسلام فى الأندلس[3].

ولما استعصى الحصن على يوسف، وانصرف جند ابن رشيق بعد أن قبض على زعيمهم وسلم للمعتمد بمشورة الفقهاء[4] ، ورأى يوسف أنه لا جدوى من حصار الحصن، أفل راجعا إلى المغرب بعد أن ترك جيشا قوامه أربعة آلاف تحت قيادة داود بن عائشة لمحاولة كبح خطر النصارى فى شرقى الأندلس[5] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ــ طبع دار الكتاب اللبنانى ــ بيروت ١٩٦٨م : ٦/٣٨٣، ٣٨٤ .

(٢) راجع دول الطوائف : ٣٣٥ .

(٣) راجع البيان المغرب: ٤/ ١٢٧، وابن خلدون: ٦/ ٢٨٣، ودول الطوائف: ٣٣٦ .

(٤) ابن خلدون: ٦/ ٣٨٤ .

(٥) دول الطوائف: ٣٣٧ .

لم يكد يمضى عام على الأحداث السابقة حتى جاز يوسف إلى الأندلس مرة ثالثة فى أوائل سنة ٤٨٣هـ، دون استدعاء من أحد هذه المرة، إذ كان عبوره لتنفيذ ما رتب له وخطط فى إسقاط ملوك الأندلس جميعا، ولما استقبله المعتمد فى الجزيرة الخضراء كعادته بالضيافات، يقال إنه وعده أن يمنحه غرناطة حين تقع فى يده عوضا عن الجزيرة الخضراء التى ظلت نقطة ارتكاز لعبور جنده[١]،أخذ يوسف طريقه إلى طليطلة معلنا رغبته فى استردادها من يد النصارى، وإن كانت حقيقة هدفه أن يختبر رغبة النصارى فى مواجهته، فعمل بعد الوصول إلى طليطلة على إحداث بعض التخريب فى جوانبها طمعا فى أن يخرج إليه ألفونسو لمواجهته فلم يخرج، فأخذ يعيث فسادا فى طريق إمداداتها بقصد أن يجر ألفونسو إلى اللقاء خارج طليطلة فلم يفعل، وهنا اطمأن يوسف إلى أن النصارى غير راغبين فى مواجهته[٢]، فاتجه نحو الجنوب إلى غرناطة، فأخذها من حاكمها عبدالله بن بلقين، وأرسل سرية إلى مالقة فأخذها من أخيه تميم[٣]، عندئذ قدم إليه المعتمد مع ابن الأفطس يهنئانه بفتح غرناطة،وذكره المعتمد بوعده السابق، فلم يجبه بشىء، فعاد المعتمد

(١) التبيان (مذكرات الأمير عبدالله بن بلقين) نشر بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال ــ طبع القاهرة ١٩٥٥م : ١٦٤. ودول الطوائف: ٣٤٢. والبيان المغرب: ١٢٧/٤ .

(٢) الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاج مدينة فاس ــ ابن أبىزرع ــ حرره وعلق عليه محمد الهاشمى الكيلانى ــ المطبعة الوطنية بشارع القناصل ــ رباط المغرب ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م : ١٠٦. تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ــ يوسف أشباخ ــ ترجمة محمد عبدالله عنان ــ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة، والمعهد الخليفى بتطوان سنة ١٩٤٠م : ٩٣، والعلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف: ١٠٦ .

(٣) تاريخ بن خلدون : ٦/ ١٨٤، والبيان المغرب : ٤/ ١٢٧ .

وابن الأفطس وقد أيقن كل منهما أن مصيره لن يكون أفضل من مصير صاحب غرناطة وأخيه[1].

فى أثناء ذلك أشاع يوسف فى أهل الأندلس رغبته فى إقامة العدل ورد الجور والظلم عنهم فتوافدت إليه الشكايات من كل مملكة تشكو صاحبها بكثرة ما فرض عليهم من مكوس وضرائب، وإرهاقهم بالظلامات والجور، فأرسل يوسف إليهم يأمرهم برفع الظلم وتوخى العدل فى الرعية والقيام بما يجب عليهم القيام به فى حماية بلادهم وذب خطر النصارى عنهم[2].

جاز يوسف إلى العدوة فى رمضان سنة ٤٨٣هـ، بعد أن رتب لقائده سير بن أبىبكر ومعاونيه أمر الاستيلاء على ممالك الطوائف، آمرا بألا يتعرض جيش المرابطين للمعتمد إلا بعد القضاء على ما دونه من الممالك، وأن تترك مملكة سرقسطة حائلا بين المرابطين وبين النصارى .

أقام يوسف فى سبتة يرتب امدادات الجيوش التى تركها فى الأندلس وليتعرف على أخبارها، ومدى نجاحها فيما نهضت له تلك الجيوش[3] التى أخذت فى اقتلاع ملوك الطوائف وإسقاط عروشهم وضم ممتلكاتهم، فأفنتهم ما بين قتيل أو أسير إلى أن جاء الدور على مملكة إشبيلية، فقسمت جيوش المرابطين إلى ثلاثة أقسام أحدها تحت إمرة ابن الحاج متجها إلى قرطبة، فحاصرها حتى دخلها فقبض على الفتح ولد المعتمد الذى بذل وسعه فى الدفاع عنها حتى قتل، وأخذت رأسه ورفعت على الرماح[4]، والقسم الثانى كان تحت إمرة

(١) البيان المغرب : ٤/ ١٢٧، ودول الطوائف: ٣٤٢، ٣٤٣ .
(٢) ابن خلدون: ٦/ ١٣٣ .
(٣) دول الطوائف : ٣٤٣ .
(٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ــ طبع القاهرة ١٢٨٣هـ : ٢٢. ودول الطوائف: ٣٤٥ .

جرور الحبشى متجها نحو رندة، وما جاورها، وكانت تحت يد يزيد الراضى ولد المعتمد، فامتنعت على جيش المرابطين واستعصى عليهم حصارها، وظلت محاصرة إلى أن أكره المعتمد على مخاطبة ولده بفتح أسوارها والنزول عنها بعد أخذ الأمان له ولمن معه، ففتحت الأسوار، وقبض على الراضى ونكث المرابطون بعهدهم فقتلوه، وأخذوا أحواز المدينة، والقسم الثالث تحت إمرة أبى بكر بن وسنو واتجه إلى ألمرية حيث معز الدولة بن صمادح وقد ملك بضعة أشهر بعد أبيه، ففر عنها إلى تونس[1] وقيل إنهم حاصروا ألمرية ولما يزل المعتصم على فراش الموت، فدخلوها وهو فى النزع الأخير من حياته[2].

فى هذا الوقت كان سير بن أبى بكر على رأس قوة تتجه إلى إشبيلية حيث المعتمد بن عباد، فطالبه بطاعة الأمير يوسف والنزول عن الأمر، ففسد ذات بينهما[3] وكان ابن عباد ــ بعد عودته من غرناطة ــ قد رتب أمره لهذا اللقاء فكاتب ألفونسو يستعين به فى مواجهة المرابطين، إلا أن جيش النصارى القادم لنجدة ابن عباد تمكن منه المرابطون، وهزموه نواحى قرطبة على الرغم من كثرة عدده وعتاده[4].

فلم يعد أمام المعتمد بن عباد إلا أن يستعين بقواته، فهيأ أسطوله لحماية المدينة من البحر، وحصن أسوار المدينة لحمايتها من المرابطين، غير أن المرابطين أحرقوا أسطول بن عباد ففت هذا

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٣٣، ٣٣٤،ودول الطوائف:١٧٣،١٧٢ .
(٢) دول الطوائف: ١٧٢، والبيان المغرب: ٣/ ١٦٨ .
(٣) تاريخ ابن خلدون : ٦/ ٣٨٤ .
(٤) ملك إشبيلية الشاعر المعتمد بن عباد: ٩٣، والمصادر التى رجع إليها حيث قدر هذا الجيش بعشرين ألف فارس وأربعين ألفا مشاة.

فى عضد رجاله[1]، ووقع اليأس بين أهل المدينة واستشعروا الخوف حتى ترامى بعضهم من فوق الأسوار، وزاد الطين بلة أن ثار على ابن عباد بعض خصومه فى إشبيلية، فخرج إليهم وقد أحدثوا ثلمة فى سور المدينة ، فحسمها بسيفه وسد ما أحدثوه[2]، غير أنهم تمكنوا فيما بعد من فتح باب المدينة فتدافع المرابطون وأحدثوا فى البلد تدميرا وتخريبا، واندفعت جموعهم نحو قصر المعتمد، فخرج إليهم غير مدّرع إلا غلالة كانت تستر بدنه ، فدافع عن نفسه وحرمه بما لا مزيد عليه، ونترك ابن اللبانة شاهد عيان يصور ما حدث بعد ذلك فيقول: "إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب فعظم الأمر فى الخطب الواقع، واتسع الخرق فيه على الراقع، ودخل البلد من جهة واديه، وأصيب حاضره بعادية باديه، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامية على الموت بنفسه بما لا مزيد عليه، ولا انتهى خلق إليه، فشنت الغارة فى البلد، ولم يبق فيه سبد على أحد ولا لبد، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم وكشفت وجوه المخدرات العذارى، ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى، ورحل بالمعتمد وآله، بعد استئصال جميع ما له، لم يصحب معه بلغة زاد، ولا بغية مراد"[3]، ويتابع بن خاقان تصوير الرحلة فيقول: "ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعدما ضاق عنهم القصر، وراق منهم المصر، والناس قد حشروا بضفتى الوادى، يبكون بدموع كالغوادى، فساروا والنوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم"[4].

---

(١) دول الطوائف : ٣٥١ .
(٢) المرجع السابق والصفحة .
(٣) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ــ الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ــ تحقيق الدكتور إحسان عباس ــ نشر دار صادر بيروت ــ ١٩٦٨م : ٤/ ٢١٦ .
(٤) المرجع السابق : ٤/ ٣٧٨ .

وصلت السفن بالمعتمد ومن معه إلى طنجة وأبقوا بها أشهرا حتى أمر يوسف بنقلهم إلى معتقلهم الأخير فى أغمات، وهى مدينة صغيرة تقع جنوب شرقى مراكش[1].

وهنا نتساءل لماذا أبقى على المعتمد حيا، وكان بإمكان المرابطين قتله بعد التغلب عليه كما فعلوا بولديه، وكما فعلوا بغيرهما من ملوك الأندلس؟ يجيب الأستاذ محمد عبدالله عنان السؤال بقوله : "أبقوا على حياة المعتمد ، وذلك فيما يبدو بإشارة أمير المسلمين ذاته، وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث غير الرأفة به، فما كان المعتمد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه، حسبما رأينا . وربما أراد عاهل المرابطين بذلك أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها، وأن يمرغ فى التراب ذلك الذى كان يعتبره قطب الفتنة فى الأندلس، وحليف النصارى الخانع، المذنب فى حق دينه ووطنه وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه"[2] نعم كان المعتمد كذلك مستنجدا بالنصارى خانعا فى مقاومتهم، باذلا من ماله لاسترضائهم والإبقاء على صداقتهم ما لا يليق بمسلم غيور أو ملك نبيل، غير أن المعتمد كان فى ذلك تابعا لا رائدا، خضع لسياسة لم يكن فى مكنته بمفرده أن يغيرها[3] وحين أتيحت الفرصة لتخييره بين اثنين: الاستمرار فى

---

(١) دول الطوائف : ٣٥٧ .

(٢) تراجم إسلامية ــ شرقية وأندلسية ــ محمد عبدالله عنان ــ منشورات مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠ : ٢١٨ . ودول الطوائف : ٣٥٦ .

(٣) درج ملوك الأندلس جميعا على الاستقواء بالنصارى منذ بداية عصر ملوك الطوائف، فلم يجد واحد منهم غضاضة فى أن يستقوى بجيوش النصارى على واحد من إخوانه من ملوك الطوائف لدفع خطره أو اغتصاب جزء من مملكته، وتاريخ هذه الحقبة حافل بكثير من النماذج المخزية لهذا المسلك المشين، ولا يعز على قارئ تاريخ هذه الحقبة أن يجد لذلك من الأمثلة ما لا حصر له .

استجداء النصارى أو طلب المعونة من إخوانه المسلمين لم يتردد فى إيثار الثانية على الأولى على الرغم من التحذير والتخويف الذى قاومه بشدة، ولا شك أن المعتمد قد بذل فى إنجاح مهمة يوسف فى الدفاع عن الإسلام فى الأندلس ما لا يفعله إلا مؤمن بقضيته، باذلا فى سبيل تحقيقها ماله ونفسه، وقد شهد بذلك يوسف نفسه فى رسالة بعث بها بعد انتصار الزلاقة إلى تميم بن المعز بن باديس[1]، فلولا هذا الصدق والرغبة الحقيقية فى استبدال الصواب بالخطأ ، والرجوع عن تلك الخطيئة إلى فيء المروءة والاعتراف بالتقصير وسوء المسلك[2] ما فعل المعتمد ما فعل فى سبيل إنجاح مهمة المرابطين فى الأندلس وفى سبيل انتصار المسلمين فى الزلاقة[3].

على الرغم من ذلك كله قابل يوسف هذه المواقف التى أثنى هو عليها مقابلة تخالف منهج الدين ودعوة الإسلام التى أشاع بين الناس تبنيها ، فالإسلام لا يقر أبدية الذنب بعد التوبة الخالصة منه، وحسن العمل يمحو سيئة[4] .

وقد أخلص المعتمد فى توبته وصدقت أعماله التى بذلها بعد ذلك فى سبيل الدفاع عن دينه ووطنه هذا الإخلاص، ولا يعترض

---

(١) نص الرسالة فى دول الطوائف : ٤٤٦ ــ ٤٥٠، والفقرات المعنية صـ٤٤٨ .

(٢) أقر المعتمد بسوء ما صنع ووعد بالعمل على تغييره ــ رسالة المعتمد إلى ألفونسو ــ دول الطوائف : ٧٦ .

(٣) لم يتردد المعتمد فى إخلاء الجزيرة الخضراء على الرغم من معارضة أولاده لذلك لتكون مركز انطلاق لجيوش المرابطين، ولم يتخلف فى معاونة جيش المرابطين وإمداده بما يلزمه من المؤونة والأقوات فى جل معاركه إن لم يكن كلها، إلى جانب المشاركة الفعلية فى كثير من هذه المعارك وعلى رأسها معركة الزلاقة .

(٤) قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ هود: ١١٤ .

على هذا باستعانته بالنصارى بعد ذلك، فالأمر ساعتها كانت تحكمه ضرورة الحفاظ على النفس والملك، وهو ما قد يشفع للمعتمد فى هذا التصرف، وإن كان خطأ، ولا أظنه كان سيلجأ إلى الاستعانة بالنصارى لولا الضعف البادى فى جيشه والتى كانت نتيجة لكثرة ما خاض من حروب فى ركاب يوسف ضد نصارى الشمال، فما كان ليوسف وهو حامل لواء الدين ينشر دعوته بين الناس، أو على الأقل يدعى ذلك، أن يفعل بالمعتمد "فعالا لم يسلكها أحد من قبله ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ..... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره"[١]، فقد اضطرت بنات المعتمد إلى غزل الصوف بالأجرة[٢] .

كما اضطر ولده للعمل نافخا للكير فى حانوت صائغ[٣]، ليقوموا بما تتطلبه حياتهم وحياة والدهم، حتى استشعرت زوجته ورفيقة اعتقاله بالهوان والمذلة، إلى جانب هذا التضييق فى المال، فقد بالغ يوسف فى إذلال المعتمد حين أمر بتكبيل يديه ورجليه فى القيود أزمانا متطاولة حتى ضاق وضجر وأعلن ذلك وهو الأنوف الصبور[٤].

ولا ينبغى أن ننخدع بما حاوله بعض المؤرخين قديما وحديثا من الترويج لحسن معاملة المعتمد فى معتقله، وأن يستشهدوا على

(١) تاريخ ابن الأثير ــ المطبعة الأهلية ١٣٠٣هـ : ١٠/ ٦٥، ودول الطوائف: ٣٦٤، وتراجم إسلامية: ٢٢٣ .
(٢) دول الطوائف: ٣٥٧ .
(٣) نفح الطيب: ٤/ ٩٧، والمعجب: ٢٢٣، ٢٢٤ .
(٤) نفح الطيب: ٤/ ٢١٧، ٢١، ٢٢٠ .

نلك ببعض مواقف وملابسات تؤكد ـ هكذا فهموا ـ صدق دعواهم[1] وقد كفانا من الكتاب والمؤرخين من فند هذه الدعوى[2].

ومما يشعر بالأسى حقا اختلال ميزان يوسف فى المعاملة بين من اتهم بنفس تهمة المعتمد على نحو ما يذكر ابن بلقين حاكم غرناطة وأسير يوسف فى أغمات أيضا[3] فعلى حين يذكر هذا حسن معاملة يوسف له ويثنى على هذه المعاملة، نجد حياة المعتمد فى معتقله التى بلغت أعواما أربعة، تسير من سيء إلى أسوأ وبخاصة بعد أن ثار ولد المعتمد (عبدالجبار) على المرابطين ونصب نفسه حاكما على أحد أقاليم إشبيلية [4] ، ولا نعرف إذا استثنينا الرغبة فى الانتقام والمبررات السياسية مبررات أخرى من دين أو عرف أو خلق تبيح ليوسف أن يأخذ الرجل بجريرة ولده، وظل المعتمد فى هذه المعاناة التى لم تحتملها زوجته، فماتت فى أوائل سنة ٤٨٨هـ، ولم يمكث بعدها طويلا، فقد لحق بها فى شوال سنة ٤٨٨هـ (أكتوبر ١٠٩٥م) [5] مأسوفا عليه من أولئك الشعراء والعلماء الذين اتسع بلاطه لهم ووسعتهم هباته وعطاياه، ولم يمنعهم خوفهم من

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ـ أبوالحسن علي بن بسام الشنترينى ـ تحقيق الدكتور: إحسان عباس ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٨م) ٢/ ١/ ٥٧، والعلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف: ١١٠

(٢) الدكتور عبدالوهاب عزام ـ المعتمد بن عباد : ٦٦، ٦٧ .

(٣) راجع ما حكاه ابن بلقين من حسن معاملة يوسف له فى مذكراته صـ١٦٠، ١٦١، ١٧١ .

(٤) دول الطوائف : ١٦٠، ١٦١ .

(٥) العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف: ١١٠، ودول الطوائف : ٣٦٠، ٣٦١، وذكر ابن بسام ـ الذخيرة: ٢/ ١/ ٧٧ ـ وابن الأبار ـ الحلة السيراء ـ ابن الأبار القضاعى ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ طبع القاهرة ١٩٦٤ : ٢/ ٥٥، أن وفاة المعتمد كانت فى ربيع الأول سنة ٤٨٨، بينما ذكر صاحب البيان المغرب أنه توفى فى ذى الحجة من السنة نفسها.

المرابطين أن يسجلوا هذا الأسف عليه بعد محنته حيا وميتا، وهو محل حديثنا فيما بعد.

-٢-

يتردد الدكتور عباس الجرارى بين الواقع وبين ما يعتقد، فواقع الحياة الأدبية والفكرية تجعل من قضية المعتمد ومأساته "أشهر قضايا الفكر والأدب سواء فى المغرب أو فى الأندلس، وأكثرها إثارة للجدل والنقاش" فى حين يعتقد ــ على أهميتها ــ أنها أخذت أكثر مما تستحق من المؤرخين والأدباء وأنها لو وضعت فى حجمها الطبيعى لما سميت محنة أو مأساة أو غير ذلك من المسميات[1].

والحق معه حين وصف الحياة الأدبية والفكرية، ولا نوافقه فى اعتقاده فى أن ما جرى للمعتمد لا يستحق أن يوصف بالمأساة ، فقد كانت مصيبة المعتمد فى ملكه كبيرة دون شك، وكان مآله فى سجنه وما حل به هو وزوجه وأولاده بعد اعتقاله إذا ما راعينا سابق عهدهم فى النعيم والرفه، وسابق ما بذل الرجل فى تدعيم أواصر ملكه، والعمل جهده ــ بمواصفات زمانه ــ فى أن يضيف إلى مملكته ما استطاع من إضافات مهمة بعد جهد جهيد ، إذا راعينا ذلك كله لما حق لنا أن نتردد فى أن نصف ما حل بالمعتمد (بالمأساة أو المحنة أو نحو ذلك)، لكن السؤال الأهم لماذا محنة المعتمد هى التى حظيت بكل هذا الاهتمام من المؤرخين والأدباء. ولم تكن هى المأساة الوحيدة التى حلت بالأندلس فمع عرشه تهاوت عروش، ومع مملكته أخذت ممالك، وأسر معه من الملوك من أسر، وقتل غيرهم آخرون وعلى الرغم من ذلك تنفرد محنة المعتمد باهتمام من المؤرخين

(١) الأدب المغربى : ١٠٩ .

والأدباء لم تحظ به محنة أخرى؟ ومرد ذلك يرجع إلى عدة أمور من أبرزها:

١ - وجود عدد كبير من الشعراء أصاب فى بلاط المعتمد ملاذا آمنا، وحياة رخوة قوامها عطايا سخية، وهبات سنية، وملك يفهم ما يقال، ويقدره حق قدره[1]، ويقرب أصحابه منه تقريبا لا مزيد عليه، ووجد من هؤلاء الأدباء والشعراء من أخلص الود للمعتمد وأكبر محبته، فلما نزل به ما نزل استشعر هؤلاء فداحة الخطب وعظم المصيبة، فبكوا فى مأساة المعتمد مآسيهم هم، ووجدوا فى زوال ملكه زوال نعمة ما كانوا يودون زوالها فظلوا على هذا الإخلاص للرجل يشاركونه ما هو فيه بشعر مؤثر يبتغون فيه مشاركة الرجل فى مأساته وأحزانه حينا، وبعث الأمل فى نفسه وحمله على التماسك حينا، وتصوير هذه المأساة وفداحة ما حدث حينا ثالثا .

٢ - ضاعف من قيمة العامل الأول ما عرف عن المرابطين من تقتير على الشعراء نظرا لعدم اهتمامهم بما يقولون أو فهمهم لما يقولون، الأمر الذى جعل هؤلاء الشعراء يوازنون بين عصرين، فبقدر البون الكبير بين ما كان عليه تقدير المعتمد للشعر والشعراء وتجاهل لدور الشعر وأهميته وعدم عناية المرابطين بتخليد مآثرهم، كانت حسرة هؤلاء الشعراء على ضياع ملك المعتمد وانقضاء دولته تتضاعف وتتزايد مع مرور الزمن .

٣ - لم يفطن المرابطون للأثر النفسى الذى كان يحدثه الشعر فى الرأى العام، فتسامحوا مع هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على المعتمد أكثر من مرة، وذاع فى الناس شعرهم وأخبارهم، الأمر الذى

(١) راجع نفح الطيب: ٣/ ٥٧٠، ٥٧١ .

جعل مأساة المعتمد ماثلة فى الأذهان جديدة دائما لا يخبو أوارها، ولا ينطفئ تأثيرها فى نفوس العامة والخاصة على السواء.

٤ - وفوق ما تقدم وأسبق منه فى تأثير هذه المأساة على الأدب والشعر ما حظى به المعتمد نفسه من ملكة شعرية قوية ومتدفقة لم تخذله يوما فى حاليه: حال نعيمه وإقبال أمره، وحال بؤسه واجترار أحزانه[1]، فقد شارك المعتمد مشاركة فاعلة تربوا بكثير على مشاركة الشعراء أنفسهم فى تصوير مأساته بشعر سيال أخذ من اهتمام المؤرخين والأدباء ما يستحق من عناية وإكبار.

لم تتخلف ملكة المعتمد الشعرية عن تسجيل محنته منذ بدايتها، فمنذ ما بدأت طلائع هذه المحنة تلوح فى الأفق، ورأى الرجل نذر الشر تتراءى له، على حين وجد من بطانته من يحاول تخفيف وقع ما يحدث، على نحو ما فعل أبوبكر الخولانى المنجم الذى أخذ يذكر من حسن طالع المعتمد ما تقوله النجوم، فكان رفض المعتمد لهذا التهويم صريحا جليا فقال[2]:

أرمدت أم بنجومك الرمد ∴ قد عاد ضدا كل ما تعد
هل فى حسابك ما تؤمله ∴ أم قد تصرم عندك الأمد
قد كنت تهمس إذ تخاطبنى ∴ وتخط كرها إن عصتك يد
فالآن لا عين ولا أثر ∴ أتراك غيب شخصك البلد
وتراك بالعذراء فى عرس ∴ أم إذ كذبت سطابك الأسد
الملك لا يبقى على أحد ∴ والموت لا يبقى له أحد

هكذا يبدو هذا الرفض للكائن الذى قد ينخدع به من يريد الانخداع عن واقع جلى لا تغيب معالمه عن بصيرة رجل كالمعتمد، وقد عرف بفطنته ونفاذ بصيرته، فكان هذا الاستفهام المنكر فى صدر الأبيات منبها لذلك المنجم الذى يحاول ــ زورا ــ خداع الرجل

(١) راجع الذخيرة: ٢/ ١/ ٤١، ٤٢ .
(٢) المرجع السابق : ٢/ ١/ ٥٦ .

وتضليله غير أن ذلك لم يصرف المعتمد عن استقراء النتائج المحتومة بمقدمات لا شك مفضية إلى ما سيؤل إليه الأمر:

الملك لا يبقى على أحد ∴ والموت لا يبقى له أحد

لكن الرجل ــ مع إيمانه بقرب مصيره ــ لا يريد أن يلحقه عار الاستسلام والدعة، بل أخذ إلى اللحظات الأخيرة فى ملكه شامخ الأنف عزيز النفس أبيا غير مستسلم لما يحاول البعض إشاعته، فقد ذكر ابن بسام أن رجلا رأى فى منامه كأن رجلا صعد المنبر جامع قرطبة واستقبل الناس ينشدهم:

رب ركب قد أناخوا عيسهم ∴ فى ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زمانا عنهم ∴ ثم أبكاهم دما حين نطق

فلما سمع المعتمد ذلك أيقن أنه نعى لملكه، وإعلام بما انتثر من سلكه فقال:

من عزا المجد إلينا قد صدق ∴ لم يلم من قال مهما قال حق
مجدنا الشمس سناء وسنا ∴ من يرم ستر سناهم لم يطق
أيها الناعى إلينا مجدنا ∴ هل يضير المجد إن خطب طرق
لا ترع للدمع فى آماقنا ∴ مزجته بدم أيدى الخرق
حنق الدهر علينا فسطا ∴ وكذا الدهر على الحر حنق
وقديما كلف الملك بنا ∴ ورأى منا شموسا فعشق
قد مضى منا ملوك شهروا ∴ شهرة الشمس تجلت فى الأفق
نحن أبناء بنى ماء السماء ∴ نحونا تطمح ألحاظ الحدق
وإذا ما اجتمع الدين لنا ∴ فحقير ما من الدنيا افترق(١)

يعمد الرجل فى هذه اللحظات الحرجة أن يركن إلى ماض عريق قوامه ملك مؤثل شاده أجداده من القدم، فكانوا شموس الدنيا لا يجحد أحد فضلهم ولا ينكر مجدهم، جمعوا مع أبهة الملك متانة الدين، ومتى جمع الرجل بين شرف الملك وصحة الدين فلا يضيره بعد ذلك تقلبات دهر لا يدوم ولا يقر قراره لكائن.

(١) الذخيرة : ٢/ ١/ ٥٨، ٥٩ .

ولم يكن المعتمد من هذا الصنف الذى يتغنى بماضيه ــ وهو حرى بذلك لما فيه من سابق المجد والسؤدد والسلطان ــ وإنما كان من هذا الصنف الذى يجمع بين عراقة الماضى وشرف الحاضر، فلم يشأ وملكه يتهاوى بين يديه وقد اجتمع الأعداء حوله إلا أن يموت واقفا، لكى يكون خير خلف لخير سلف، لذلك وجدناه يسجل هذه اللوحة الرائعة، ويصور هذا المشهد الجليل له وقد خرج حاسر الرأس ليس عليه إلا غلالة لا تمنع سيفا ولا تقى رمحا، ليلقى أعداءه بقلب لا يعرف خوفا وعزم لا يقر كللا، وإنما "خرج مدافعا عن ذاته، وذابا عن حرماته، وظهر يومئذ من بأسه، ومن ترامية ــ زعموا ــ على الموت بنفسه، ما لا مزيد لبشر عليه، ولا تناهى لخلق إليه، وفى ذلك يقول:

لما تماسكت الدموع ∴ وتنبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة ∴ فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع ∴ على فمى السم النقيع
إن تستلب عنى الدنا ∴ ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه ∴ لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ∴ ع أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ∴ ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القمي ∴ ص على الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسي ∴ ل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن ∴ بهواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ∴ ل وكان من أملى الرجوع
شيم الأولى أنا منهم ∴ والأصل تتبعه الفروع(١)

لكن كثرة الداخلين عليه من المرابطين غلبت شجاعته وترامية على الموت، فلم يقع ما تمناه: موت أبى يتوج هذه البطولة ، وإنما قبض عليه، ورحل مع أهله معتقلا إلى المغرب حيث أراد آسروه،

(١) الذخيرة : ٥٢، ٥٣، والأبيات فى المعجب: ٢٠٢، ٢٠٣، وبعضها فى النفح: ٤/ ٢٧٧ .

يرجون بذلك إبعاده عن موطنه وعن كثرة محبيه، ومرتادى عطاياه، لكن هيهات فلم يكن سيب المعتمد مقصورا على ناحية من نواحى الأرض أو جهة من جهاتها، فالكل كان يطمح إلى عطائه، ويؤمل نداه، ولذلك ما إن نزل المعتمد أرض طنجة فى المغرب نسى طلاب الحاجات ما عليه حال الرجل، وغلب إلف ما تعودوه منه على ما أراده له آسروه، فتعرض له جماعة من شعراء المغرب يلتمسون نواله، غير أن الأحوال لم تكن كما ألفوا، فلم تغن المروءة وبذل الموجود حاجتهم فكان منهم من الجحود ما عكر صفو الرجل وحرك كامن أحزانه، فقال يعتب على الحصرى القيروانى عدم مجاوبته على شعر رفق عطيته التى أمكنته حاله بذلها فقال(١):

قل لمن جمع العلـ ... م ومن أحصى صوابه
كان فى الصرة شعر ... فتنظرنا جوابه
قد أثبناك فهلا ... جلب الشعر ثوابه

إلا أن الحصرى لم يعقب ولم يلتفت إلى عتاب الرجل فبان طمعه وسوء طويته، غير أن السخرية تبلغ مداها حين ترامى نبأ الحصرى إلى بقية شعراء طنجة من محترفى الكدية، ولم يلتفتوا إلى عتب الرجل وإعلان ضيق ذات يده، وأنه لم يعد يملك للعفاة الضيع إلا دعوة صالحة بعد أن عز عليه المال الذى يمنحه كل طالب، فترصدوه فى كل طريق ، وألحفوا فى طلب عطيته غاية الإلحاف، حتى ضاق بهم ذرعا وأعلن فى يأس وقنوط:

شعراء طنجة كلهم والمغرب ... ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألو العسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخمية ... طى الحشا ناغاهم فى المطلب
قد كان أن سئل الندى يجزل وإن ... نادى الصريخ ببابه اركب يركب(٢)

(١) الذخيرة : ٢/ ١/ ٦٦، ٦٧ .
(٢) المرجع السابق : ٦٧ .

موقف لم يألفه المعتمد من قبل أن يدعى إلى النوال فيعجز، وأن تطلب منه المساعدة، فيحول ضيق ذات يده بينه وبين ما يرضى طالبه ويسعده، لذلك نجده يتبرم ويضيق بما آلت إليه حاله، فيقول(١):

قبح الدهر فماذا صنعا ∴ كلما أعطى نفيسا نزعا
قد هوى ظلما بمن عاداته ∴ أن ينادى كل من يهوى: لعا
من إذا قيل الخنا صم، وإن ∴ نطق العافون همسا سمعا
من إذا الغيث همى منهمرا ∴ أخجلته كفه فانقطعا
من غمام الجود من راحته ∴ عصفت ريح به فانقشعا
قل لمن يطمع فى نائله ∴ قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة ∴ رحم الله العفاة الضيعا

هكذا تبدلت حال المعتمد وتغيرت أوضاعه وبخاصة بعدما نقله آسروه إلى أغمات فى مكان لا يليق به، فضيقوا عليه، وحالوا بينه وبين كثير مما كان يحب، فأخذ الرجل ينظر فيما هو فيه من حال ويجتر ذكريات ماض كان مشرقا ، ولما لم يجد سلوا، ولم يؤمل دنوا، ولم يروجه مسرة مجلوا تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانه، وإظلام جوه من أقماره، وخلوه من حراسة وسماره، فقال:

بكى المبارك فى إثر بن عباد ∴ بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثرياه لا غمت كواكبها ∴ بمثل نوء الثريا الرانح الغادى
بكى الوحيد بكى الزاهى وقبته ∴ والنهر والتاج كل ذله بادى
ماء السماء على أفيانه درر ∴ يالجة البحر دومى ذات ازباد(٢)

ولم يكف المعتمد عن اجترار ماضيه، ومقارنته بواقعه الذى هو فيه، وكلما أمعن فى هذه المقارنة ازداد سخطه على واقعه،

---

(١) نفح الطيب: ٤/ ٢٧٤ .
ديوان المعتمد بن عباد ــ تحقيق الدكتور رضا السويسى ــ دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ــ تونس ١٩٨٥م : ٩٥ .
(٢) نفح الطيب: ٤/ ٩٦، والمعجب: ٢٠٧، ديوان المعتمد ابن عباد ــ تحقيق أحمد بدوى وحامد عبدالمجيد ــ طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م : ٩٥ .

واستشعر الغربة ووحشة المنزل، وكيف أنه ترك فى موطنه الأول أماكن لا تقل إليه حنينا من حنينه إليها، فهى إلى لقائه أكثر شوقا، فكم كانت به عامرة، وبأيام سعده زاهره، وكلما جال خاطره بمثل هذه السبحات تضاعف عليه الحزن واشتدت به الوحشة واستشعر غربة نفسية أكثر تأثيرا فى نفسه من غربته المكانية، فلم يجد إلا الشعر مسلاة يهتف به:

غريب بأرض المغربين أسير ∴ سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا ∴ وينهل دمع بينهن غزير
إذا قيل فى أغمات قد مات جوده ∴ فما يرتجى للجود بعد نشور
مضى زمن والملك مستأنس به ∴ وأصبح اليوم عنه وهو نفور
برأى من الدهر المضل فاسد ∴ متى صلحت للصالحين دهور
أذل بنى ماء السماء زمانهم ∴ وذل بنى ماء السماء كثير
فما ماؤها إلا بكاء عليهم ∴ يفيض على الأكباد منه بحور
فيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ∴ أمامى وخلفى روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ∴ تغنى قيان أو ترن طيور
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده ∴ غيورين والصب المحب غيور
تراه عسيرا أم يسيرا منالة ∴ ألا كل ما شاء الإله يسير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت ∴ هنالك عنا للنشور قبور(١)

هكذا تتوزع مشاعر الرجل بين اليأس من العودة إلى أماكن أنسه وأيام سعده، وبقية أمل تراوده مبعثها إيمانه بقدرة الله عزوجل فى تيسير وتقريب البعيد وتذليل الحزن الصعب، نعم كثر حنينه هنا إلى أماكن أنسه ومواطن لهوه ولم تكن تلك الأماكن وحدها هى التى افتقدها فى واقعه الجديد، بل افتقد شيئا آخر لا يقل محبة فى نفسه عن سابقه، بل ربما كان أكثر من سابقه، ونعنى به ما كان يبديه المعتمد من فروسية أيام ملكة وعناية بآلات حربه، التى غدت هى

(١) الذخيرة: ٢/١/ ٢٧٥، نفح الطيب: ٤/ ٢٧٥، ديوان المعتمد ـ ضمن موسوعة الشعر العربى ـ الإصدار الثالث ـ الصادرة عن المجمع الثقافى بأبى ظبى .

الآخرى عاطلة منه آسفة عليه فتبدلت بنود جيشه ، وفساطيط رجاله وسيوفه المرهفة ورماحة المشرعة، تبدل كل ذلك بسجن ضيق، وقيد محكم مغلول اليدين والرجلين قعيد محبسه، لا يصنع شيئا وليست له قدرة على صنعه:

تبـدلت مـن عـز ظـل البنـود ∴ بـذل الحديـد وثقـل القيـود
وكـان حديـدى سـنانا ذليقـا ∴ وعضـبا رقيقـا صـقيل الحديـد
فقـد صـار ذاك وذا أدهمـا ∴ يعـض بسـاقى عـض الأسـود(١)

هكذا تبدلت أيام الرجل فتبدلت معها وظائف الأشياء ، فالحديد الذى كان فى يده سيفا مشرعا مرهف النصل مصقول الجوانب يجول به فى هام أعدائه، غدى اليوم قيودا تغل حركة يديه ورجليه، فتكرهه على القعود مرغما، ولكن ماذا يفعل وقد شاء الله له هذا المصير فليس له الآن إلا أن يقول(٢):

لك الحمد من بعد السيوف كبول ∴ بساقى منها فى السجون حجول
وكنا إذا حانت لنحر فريضة ∴ ونادت بأوقات الصلاة طبول
شهدنا فكبرنا فظلت سيوفنا ∴ تصلى بهامات العدا فتطيل
سجود على إثر الركوع متابع ∴ هناك بأرواح الكماة تسيل

هكذا ضاق الرجل بتبدل حاله، وفيما يبدو أن زوجته لم تكن أقل منه ضيقا، بل ربما كانت أكثر نفورا من هذا الواقع الجديد، ولم لا وهى المترفة التى ألفت نعيم الحياة ورغدها، ولم تعرف منذ جمعتها الأسباب والمعتمد إلا كل ما يسر ويسعد، وها هى اليوم تجد نفسها وقد تعطلت من كل ذلك وحرمت من كل ما تشتهى، فلما ضاق بها الاحتمال باحت بمكنون نفسها، فقالت ما حكاه المعتمد:

قالـت لقـد هنـا هنـا ∴ مـولاى أيـن جاهنـا

(١) الذخيرة: ٢/ ١/ ٧٥، ديوان المعتمد بن عباد ــ ضمن موسوعة الشعر العربى .
(٢) المرجع السابق .

قلـــت لهـــا إلهنـــا ∴ صـــيرنا إلى هنـــا[1]

وهكذا يحاول الرجل أن يخفف عنها بعض ما تجد، وأن يبث فيها روح الأمل فى الله، فلعل قابل الأيام يأتيهم بخير عما هم فيه.

ولما لم يحدث ما رجاه لزوجته، ووجد حالها على ما لا يحبه لها رغب فى محاولة التوسعة عليها، فطلب من حواء بنت تاشفين خباء لاعتماد زوجته، غير أنها اعتذرت بأن ليس عندها خباء فقال[2]:

هـم أوقـدوا بـين جنبيـك نـارا ∴ أطـالوا فـى حشـاك اسـتعارا
أمـا يخجـل المجـد أن يرحلـوك ∴ ولم يصـحبوك خبـاء معـارا
فقـد قنعـوا المجـد إن كـان ذاك ∴ وحاشـاهم منـك خزيـا وعـارا
يقـل لعينيـك أن يجعلـوا ∴ سـواد العيـون عليكم شـعارا

هكذا تسفر محاولة التخفيف هذه عن زوجته، تلك السخرية المرة، والتى تشف عن عمق المفارقة التى كانت تألفها هذه الزوجة وما عليه نساء المرابطين من تقشف وتشدد فى العيش، ويبدو أن هذه المفارقة فى الحياة التى كان يحياها ذوو المعتمد فيما مضى وفيما هم عليه أيام محنته تؤجج فى نفس الرجل ضروبا من الأسى والألم كلما كانت هناك ملابسات تشعره بهذه المفارقة، يبدو ذلك حين جاء أول عيد بعد أسره، "فدخل عليه من بنيه من يسلم عليه ويهنيه، وفيهم بناته وعليهن أطمار، كأنها كسوف وهن أقمار، يبكين عند التساؤل، ويبدين الخشوع بعد التخايل، والضياع غير صورهن، وحير نظرهن، وأقدامهن حافية، وآثار نعيمهن عافيه،فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ∴ فساءك العيد فى أغمات مأسورا
تـرى بناتـك فـى الأطمـار جائعـة ∴ يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
بـرزن نحـوك للتسـليم خاشـعة ∴ أبصـارهن حسـيرات مكاسـيرا
يطأن فـى الطين والأقـدام حافيـة ∴ كأنهـا لم تطـأ مسـكا وكـافورا
لا خـد إلا تشـكى الجـدب ظـاهره ∴ ولـيس إلا مـع الأنفـاس ممطـورا

(١) نفح الطيب : ٤/ ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق ٤/ ٢١٧ .

أفطرت فى العيد لا عادت مساءته ∴ فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا ∴ فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ∴ فإنما بات بالأحلام مغرورا(١)

وحين دخل عليه ولده أبوهاشم فلما رآه فى قيده دمعت عينا الصبى، فأهلجت دموعه نفس المعتمد وكان هذا الولد ــ على صغره ــ أحب بنيه إليه، فأنشد المعتمد(٢):

قيدى أما تعلمنى مسلما ∴ أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد ∴ أكلته لا تهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبوهاشم ∴ فينثنى والقلب قد هشما
ارحم طفيلا طائشا لبه ∴ لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله ∴ جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شينا فقد ∴ خفن عليه للبكاء العما
والغر لا يفهم شينا فما ∴ يفتح إلا لرضاع فما

وفيما يبدو أن المعتمد كان يستشعر عمق المأساة التى يحياها من خلال هذه الملابسات التى جعلته يأسى كل هذا الأسى حينما يبصر أحدا من ذويه وقد أصابه من المذلة والمهانة ما أصابه، ولم يكن إحساس المعتمد بهذه المسألة مقصورا على ما أصاب الأحياء من ذويه، بل يمتد إحساسه لينكر فى أزمته هذه ما أصاب أولاده من القتل والتنكيل على يد المرابطين، فأخذ يعبر عن مأساة فقده لهم فى صورتين إحداهما جاءت رثاء خالصا فى نحو قوله(٣):

يقولون صبرا لا سبيل إلى الصبر ∴ سأبكى وأبكى ما تطاول بى عمرى
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه ∴ يزيد فهل عند الكواكب من خبر
ترى زهرها فى مأتم كل ليلة ∴ تخمش لهفا وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمين، أثكلت ذا وذا ∴ وأصبر ما للقلب فى الصبر من عذر
أفتح لقد فتحت لى باب رحمة ∴ كما يبزيد الله قد زاد فى أجرى

(١) نفح الطيب : ٤/ ٢٧٣، ٢٧٤، والأبيات فى الذخيرة : ٢/ ١/ ٧٣
(٢) الذخيرة : ٢/ ١/ ٧٣، ٧٤ .
(٣) الذخيرة: ٢/ ١/ ٦٨، ٧٠، ٧١، وديوان المعتمد ــ ضمن موسوعة الشعر العربى .

توليتما والسن بعد صغيرة ∴ ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى
توليتما حين انتهت بكما العلا ∴ إلى غاية كل إلى غاية يجرى
فلو عدتما لاخترتما العود فى الثرى ∴ إذ أنتما أبصرتمانى فى الأسر
يعيد على سمعى الحديد نشيده ∴ ثقيلا فتبكى العين بالجس والنقر
مع الأخوات الهالكات عليكما ∴ وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
فتبكى بدمع ليس للقطر مثله ∴ وتزجرها التقوى فتصغى إلى الزجر
أبا خالد أورثتنى الحزن خالدا ∴ أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى
وقبلكما قد أودع القلب حسرة ∴ تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو

فالمعتمد هنا يجيب مباشرة أولئك الناصحين له بالصبر والتأسى فى فقد ولديه الفتح ويزيد، إلا أنه يقطع عليهم محاولتهم ببيان عظم الأمر الذى هو فيه ، فقد أصابه بفقد ولديه مذلة وهوانا تضاعف من إحساسه بفقدهما حتى تضاءل ما أصابهما حيال ما أصابه، فقد أحرزا بما فعلا سمو المنزلة وعظم القدر، على حين أصابه من الهوان ما لو رأياه لاستحسنا ما أصابهما .

ولم يكتف المعتمد ببيان أثر فقد أولاده عليه وحده، بل تناول ما أصاب بناته وزوجته، فقد تجاوب نحيبهن مع صوت قيوده، التى وقف أمامها عاجزا لا يملك حيال ما يرى إلا عينا أوجعها البكاء وأرمدها الأسى، وعلى حين استطاعت زوجته أن تستوعب المصيبة فى فقد ولديها لم يستطع هو، بل ختم حديثه بما يشعر بعدم احتماله وسوء ما ألم به :

أبا خالد أورثتنى الحزن خالدا ∴ أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى
وقبلكما قد أودع القلب حسرة ∴ تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو

والصورة الأخرى لاجترار المعتمد لمأساة فقد أولاده تلك الصورة الحزينة الباكية التى كررها مرارا[1]، وقد رأى على نافذة محبسه قمرية تنوح فقال[2]:

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر ∴ مساءا وقد أخنى على إلفها الدهر

(١) الذخيرة: ٢/ ١/ ٧١، ٧٢، ونفح الطيب: ٤/ ٢٢١، ٢٢٢ .
(٢) الذخيرة: ٢/ ١/ ٦٨، ٦٩، ونفح الطيب: ٤/ ٢٥١ .

بكت لم ترق دمعا وأسبلت عبرة ∴ يقصر عنها القطر مهما همى القطر
وناحت وباحت واستراحت بسرها ∴ وما نطقت حرفا يبوح به سر
فمالى لا أبكى أم القلب صخرة ∴ وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده ∴ وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بنى صغير أو خليل موافق ∴ يمزق ذا قفر ويفرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما ∴ بقرطبة النكداء أو رنده القبر
غدرت إذن إن ضن جفنى بقطرة ∴ وإن لؤمت نفس فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى ∴ لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وهذا التجاوب النفسى عندما تشتد الأزمة بالإنسان فيلتمس فى الموجودات الأخرى ، وبخاصة الحمام، ما يشاركه ما هو فيه من الأحزان ــ أمر ذائع معروف فى تراثنا الشعرى، عمد إليه المعتمد وقد وسع من دائرة أسباب حزنه، فلو كانت القمرية تبكى على فقد واحد، فقد فقد العديد الكثر من الأهل والأولاد، فهو شديد الأسى، دائم البكاء على فقد آلافه وأولاده، ذلك الفقد الذى يستوجب منه ديمومة الحزن واستمرارية البكاء ، بل يدعو الكون كله ــ ممثلا فى النجوم الزهر ــ لمشاركته فى حزنه وبكائه وكأنه تقال حزنه وبكاءه إزاء فداحة ما أصابه:

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى ∴ لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وفيما يبدو أن المعتمد كان شديد الهموم بأهله وذويه، أحياء وأمواتا على نحو ما رأينا، فالأشياء تتمحور حول إحساسه بأهله دنوا وبعدا، فهذه القمرية ــ على جمال صورتها وحسن منظرها ــ لم تعد ضيفا مقبولا ولا أنيسا مستحبا لأنها ذكرته بأولاده الذين رحلوا، على حين كان الغراب ــ وهو ما هو عند العرب تشاؤما وتطيرا ــ بشير سعد إذ صادف نعيبه خبر وصول بعض نساءه إليه، فانقلب التشاؤم المألوف عند الناس تفاؤلا وبشرا، ما دام يحمل هذا النبأ السعيد فقال[1]:

غربان أغمات لا تعدمن طيبة ∴ من الليالى وأفنانا من الشجر

(١) الذخيرة ٢/ ١/ ٧٦، ٧٧ .

تظل زغب فراخ تستكن بها ∴ من الحرور وتكفيها أذى المطر
كما نعبتن لى بالفأل يعجبنى ∴ مخبرات به عن أطيب الخبر
أن النجوم التى غابت قد اقترب ∴ منا مطالعها تسرى إلى القمر
على إن صدق الرحمن ما زعمت ∴ ألا يروعن من قوسى ولا وترى
والله والله لا نفرت واقعها ∴ ولا تطيرت للغربان بالعور
ويا عقاربها لا تعدمى أبدا ∴ شدخا ولا عقرا ولا نوعا من الضرر
كما ملأتن قلبى مذ حللت بها ∴ مخافة أسلمت عينى إلى السهر
ماذا رمتك به الأيام يا كبدى ∴ من نبلهن ولا رام سوى القدر
أسر وعسر ولا يسر أؤمله ∴ أستغفر الله كم لله من نظر

ولم يبدل سعده بوصول بعض نسائه إليه مألوف ما تناقله الناس من شؤم الغراب وحسب، بل امتدت سعادته بقدوم نسائه إليه فتجعل من العقارب أليفا مستأنسا يدعو له بالخير ويحرم على نفسه ما كان قد تعود منها من قبل، غير أن هذا الإحساس المتفائل لم يلبث طويلا إذ سرعان ما استحضر ما هو فيه،وتذكر سوء حاله وما يعانيه:

ماذا رمتك به الأيام يا كبدى ∴ من نبلهن ولا رام سوى القدر
أسر وعسر ولا يسر أؤمله ∴ استغفر الله كم لله من نظر

ظل المعتمد على هذا الحال ما يربو على السنوات الثلاثة، وإحساسه بالهوان والذلة يتضاعف إلا أنه كان محتملا، أو هكذا حاول الرجل أن يبدو متماسكا على الرغم مما كان يبديه من معالم الضيق والضجر من هذا الواقع الأليم، إلى أن كانت ثورة ابنه عبدالجبار التى أشرنا إليها، فتجدد الأمل فى نفس الرجل، واستيقظت فيه همته، فأبدى حماسة وتشوفا إلى استعادة ماضيه:

كذا يهلك السيف فى جفنه ∴ إلى هز كفى طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقله ∴ ولم تروه من نجيع يمينى
كذا يمنع الطرف علك الشكيم م مرتقبا غرة فى كمين
كأن الفوارس فيه ليوث ∴ تراعى فرانسها فى عرين
ألا شرف يرحم المشرفى ∴ مما به من شمات الوتين
ألا كرم ينعش السمهرى ∴ ويشفيه من كل داء دفين
ألا حنة لابن محنية ∴ شديد الحنين ضعيف الأنين

يؤمل فى صدرها ضمة ∴ تبوؤه صدر كف معين(١)

غير أن يوسف ما أن علم بهذه الثورة حتى أمر أن يشدد المحبس على المعتمد وأن تضاعف قيوده وأغلاله، وكأنه خشى المعتمد بعد أن ثار ولده، فاشتد القيد على المعتمد، وزاد باشتداده أساه، فقال يندب نفسه(٢):

غنتك أغماتية الألحان ∴ ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالثعبان رمحك فى الوغى ∴ ففدى عليك القيد كالثعبان
متمددا يحميك كل تمدد ∴ مستعطفا لا رحمة للعانى
قلبى إلى الرحمن يشكو بثه ∴ لا خاب من يشكو إلى الرحمن
يا سائلا عن شأنه ومكانه ∴ ما كان أغنى شأنه عن شانى
هاتيك قبته وذلك قصره ∴ من بعد أى مقاصر وقيان
من بعد كل غريرة رومية ∴ تخزى الحمائم فى ذرى الأغصان

والظاهر من كلام الفتح أن قسوة يوسف ومبالغته فى تقييد المعتمد وإغلاله استمرت زمانا، حتى ذاع الأمر وفشا، وعلم به القاصى والدانى، الأمر الذى جعل المعتمد يقول(٣):

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا ∴ بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم ∴ حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكبادا وأفئدة ∴ وأغرق الدمع آماقا وأحداقا
قد ضاق صدر المعالى إذا نعيت لها ∴ وقيل إن عليك القيد قد ضاق
أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب ∴ للعالمين وللسباق سباقا
قلت الخطوب أذلتنى طوارقها ∴ وكان غربى إلى الأعداء طراقا
متى رأيت صروف الدهر تاركة ∴ إذا انبرت لذوى الأخطار أرماقا

---

(١) ديوان المعتمد، نفح الطيب: ٤/ ٢٢٠، البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف ــ د/ سعد إسماعيل شلبى ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ القاهرة : ٣٤٣ .

(٢) الذخيرة: ٢/ ١/ ٢٧٤، ونفح الطيب: ٤/ ٢١٩، ديوان المعتمد بن عباد ــ ضمن موسوعة الشعر العربى .

(٣) نفح الطيب: ٤/ ٢١٩، ٢٢٠، وديوان المعتمد ــ ضمن موسوعة الشعر العربى .

هكذا يصور المعتمد ضخامة الأثر الذى أحدثته هذه المعاملة السيئة فى نفوس من ترامت إليهم أخبار تلك المعاملة من محبيه، وفيما يبدو أن أكثر من تأثر بهذا الجفاء فى معاملة المعتمد بعض كرائمه ـ ولعلها زوجته ـ إذ اشتد عليها المرض، وتصادف أن كان الوزير أبوالعلاء بن زهر[1] الطبيب المشهور بالمغرب، فاستدعاه المعتمد لعلاجها وبعد أن أنهى الوزير مهمته دعا للمعتمد بالبقاء وطول العمر، فقال المعتمد[2]:

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى ∴ أسير أن يطول به البقاء
ألـيس الموت أروح من حياة ∴ يطول على الشقى بها الشقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى ∴ عوارى قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى ∴ مراتبه ـ إذا أبدو ـ النداء
وطرد الناس بين يدى مرورى ∴ وكفهم إذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال ∴ إذا أختل الأمام أو الوراء
ولكن الدعاء إذا دعاه ∴ ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر ∴ نوى برا وصاحبك العلاء
سيسلى الكل عما فات علمى ∴ بأن الكل يدركه الفناء

---

(١) هو أبوالعلاء زهر بن عبدالملك بن زهر الإيادى، كان من مشاهير الأطباء العرب وهو من أسرة اشتهرت جميعا بعلو القدم فى الطب، وجمع ابن زهر بين الشعر والطب وعلم الحديث، تنقل أبوالعلاء بين إشبيلية وقرطبة، ونال حظوة كبيرة لدى حكام عصره، يقول عنه صاحب التكملة : "إن زهرا أنسى الناس من قبله إحاطة بالطب وحذقا لمعانيه حتى إن أهل المغرب ليفاخرون به وبأهل بيته فى ذلك" صنف أبوالعلاء العديد من المؤلفات منها "الطرز" فى الطب، الخواص، الأدوية المفردة، حل شكوك الرازى على كتب جالينوس،وغيرها،وقد نكب فى قرطبة وتوفى بها،وحمل إلى إشبيلية سنة ٥٢٥هـ،راجع فى ترجمته:طبقات الأطباء ٢/ ٦٤ ـ ٦٦، والتكملة ترجمة ٧٦،ودائرة المعارف الإسلامية: ١/ ١٨٣،والأعلام: ٣/ ٥٠ .

(٢) الذخيرة: ٢/ ١/ ٢٢٧، ٢٢٨، والمعجب: ٢١٨، وديوان المعتمد ضمن موسوعة الشعر العربى.

وتشف الأبيات عن رغبة عارمة فى التخفف من هذا العبء، أما وقد عز على المعتمد ذلك، فليس أمامه إلا الموت فرجة ومنجاة مما هو فيه، فأبدى تمنيه غير أن الموت تخطاه إلى زوجته فماتت قبله، فكان ذلك للمعتمد قاصمة الظهر التى لم يتحملها .

هكذا كانت حياة المعتمد فى أغمات تتأرجح بين ما يبعث على الأمل فى النجاة، وانفراج الأمور، وإن لم يدم هذا طويلا، فكثيرا ما كانت تعقب هذه الأحوال أحوال أخرى تؤجج فى نفسه الإحساس بالمذلة، والهوان، فتصيبه بالإحباط وبغض الحياة، وتمنى انقضائها:

تؤمل للنفس الشجية فرجة ∴ وتأبى الخطوب السود إلا تماديا
لياليك فى زاهيك أصفى صحبتها ∴ كذا صحبت قبلى الملوك الليالیا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ ∴ وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا(١)

ولم يمض وقت طويل بعد وفاة زوجته حتى استشعر المعتمد دنو أجله فأنشأ أبياتا وأوصى أن تكتب على قبره يقول فيها(٢):

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى ∴ حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
الطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا ∴ بالخصب إن أجدبوا بالرى للصاوى
نعم هو الحق وافانى به قدر ∴ من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ∴ أن الجبال تهادى فوق أعواد
فلا تزل صلوات الله نازلة ∴ على دفينك لا تحصى بتعداد

وكانت وفاة المعتمد فى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ (أواخر أكتوبر ١٠٩٥م) (٣).

هكذا استطاع المعتمد بما أوتى من ملكات شعرية قادرة على التعبير والإفصاح ، أن يصور لنا مأساته فى شعر ينضح بالأسى ويبعث على الألم مفعما بالشعور الصادق، والعاطفة الجياشة، وهو أمر لم يتوفر إلا للقلائل من أولئك الأمراء والملوك الممتحنين فى

(١) نفح الطيب : ٤/ ٢١٩ . وديوان المعتمد بن عباد ــ طبع القاهرة: ٩٦ ، الذخيرة : ٢/ ١/ ٥٧ .
(٢) ديوان المعتمد ابن عباد ــ طبع القاهرة: ٩٦، الذخيرة: ٢/ ١/ ٥٧ .
(٣) دول الطوائف: ٣٦٠ .

ممالكهم، واستطاعوا أن يعبروا عن محنتهم على هذا النحو الذى استطاعه المعتمد.

- ٣ -

لم تكن محنة المعتمد ذات أثر بالغ فى شعر المعتمد وحده، بل كانت ذات أثر بعيد فى شعر غيره أيضا، وإن تفاوت هذا الأثر بين الشعراء قلة وكثرة بقدر قرب كل منهم من المعتمد، وإخلاص محبته له أو بقدر تأثره بما حل بالرجل، أو قدر استحضاره لتلك الصورة المهيبة التى احتفظ بها التاريخ للمعتمد، وإعلاء ما كان يتمتع به من شيم ومزايا، لذلك جاء أمر محنة المعتمد غزيرا موفورا فى شعر أولئك النفر الذين تمرغوا فى نعيمه وتمتعوا فى عزه، ونالهم منه خير كثير فأصاب هؤلاء بمحنة المعتمد من الأسى والحزن ما أصابهم بقدر إخلاصهم له وبقدر تبدل حالهم بعده، وجاء على رأس هذا الفريق ابن اللبانة الدانى[1] وابن حمديس الصقلى[2]، على حين جاء

(١) هو أبوبكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمى، شاعر أديب من أهل دانية، كان من شعراء ابن صمادح (محمد بن معن) وتنقل بينه وبين المعتمد ونال كثيرا من عطايا هذا الأخير، وبعد وفاة المعتمد وابن صمادح انتقل إلى جزيرة ميورقة وتوفى بها سنة ٥٠٧هـ - ١١١٣م (راجع ترجمته فى التكملة لابن الأبار ترجمة ١٤٥، وفوات الوفيات للصفدى: ٢/ ٢٦٠، والأعلام للزركلى ٦/ ٣٢٢).

(٢) هو عبدالجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى، كنيته أبومحمد، ولد وتعلم فى جزيرة صقلية ورحل منها إلى الأندلس سنة ٤٧١هـ، ومدح فى رحلته هذه المعتمد بن عباد فأجزل له العطاء وقربه منه وأقام عنده زمنا إلى أن خلع المعتمد فانتقل إلى إفريقية سنة ٤٨٤هـ فمدح صاحبها يحيى بن تميم الصنهاجى، ومن بعده مدح ابنه عليا وابنه الحسن وتوفى بعد أن فقد بصره فى جزيرة ميورقة فى نحو ٨٠ عاما سنة ٥٢٧هـ - ١١٣٣م، له ديوان شعر حققه واهتم بطبعه الدكتور سيد غازى. (راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ١/ ٣٠٢، والتكملة ترجمة ١٣٧، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٤٥، والأعلام للزركلى: ٣/ ٢٧٤).

هذا الأثر لماما فى شعر الشعراء الذين لم تربطهم بالمعتمد صلات قوية أو أواصر متينة فكان تأثرهم بالمحنة تأثر المعتبر المتعظ بصروف الزمان وتغير الأحوال، وكان تأثرهم تأثر المستحضر للعبرة والعظة حين يستدعى موقف ما هذا التأثر والاستحضار، ومن هنا تستوجب دراسة أثر محنة المعتمد فى شعر غيره من الشعراء أن نتناولها من خلال هذه المحاور:

أولا: عرفنا فيما سبق أن أسرة بنى عباد احتفلت كثيرا بالشعر والشعراء فكان كل واحد من ملوكهم شاعرا مجيدا، له فى الشعر ونقده وجزيل المثوبة عليه باع طويل ومواقف مشهودة[1]، وذاع صيتها وعم الأرجاء فالتف حولهم نفر كثير، كان منهم الوزراء والندماء، وكبار الدولة، ونالوا عندهم حظوة لم يناولوها عند غيرهم من ملوك الأندلس، فلما حل بالمعتمد ما حل من النفى والسجن والتضييق، وجد هؤلاء أنفسهم فى مهب الريح، فندبوا فى محنة المعتمد أنفسهم وضياع حظوظهم وتغير حالهم بعده، لذلك وجدناهم يأوون إليه غير مرة يستحضرون ذلك الماضى المشرق الذى كانوا يشاركون الرجل فيه، ويبكون هذا الواقع الأليم الذى يحياه المعتمد فى محنته، إذ أصابهم منه ما أصابه وأضعاف ما أصابه، فنجد أبوبكر الدانى (ابن اللبانة) ــ وقد شهد المحنة بعينيه وعاشها واختلط بها ــ يصور ملامح هذه المحنة فى كتاب جمع فيه ما قاله من شعر فى كتاب أسماه "السلوك فى وعظ الملوك"[2] ، غير أن هذا الكتاب فقد ولم نعثر عليه وإن كانت المصادر قد نقلت عنه أكثر من قصيدة طويلة تصور المحنة تصويرا ينضح بالأسى ويفصح عن حزن عميق، وعدة مقطعات جاءت فى مناسبات مختلفة إثر زيارات للمعتمد فى معتقله.

(١) نفح الطيب: ٣/ ٥٧٠، ٥٧١ .
(٢) المرجع السابق : ٤/ ٢٥٨ .

ومن هذه القصائد تلك القصيدة الدالية والتى تبلغ فى ديوانه ستة وخمسين بيتا[1] وقد بدأها بحديث مفصل ينـدب من خلاله مفردات الحياة فى دولة بنى عباد، وما أصابها من تحول وتغيير بعدما خلع مليكها فيقول:

تبكى السماء بمزن رائح غادى ∴ على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها ∴ وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
والرابيات عليها اليانعات ذوت ∴ أنوارها فغدت فى خفض أوهاد
وعريسة دخلتها النائبات على ∴ أساود لهمو فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها ∴ فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
تلك الرماح رماح الخط ثقفها ∴ خطب الزمان خطب غير معتاد
والبيض بيض الظبى قلت مضاربها ∴ أيدى الردى وثنتها دون أغماد
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ∴ وكل شىء لميقات وميعاد
كم من درارى سعد قد هوت ووهت ∴ هناك من درر للمجد أفراد
نور ونور فهذا بعد نعمته ∴ ذوى وذا خبا من بعد إيقاد

على هذا النحو من الشعر الباكى الحزين تابع الشاعر حديثه بالتأكيد على عدم صلاحية هذه الديار لما كانت تصلح له أيام سعد المعتمد، من كثرة الضيفان الوافدين على أهلها الراغبين فى الإقامة بينهم، أولئك الفرسان الذين كانوا يخوضون غمار الحروب مدججين بأسلحتهم يمتطون صهوات جيادهم، أو لهؤلاء الذين كانوا ينشدون اللذة والمتعة فى رحاب هذه الديار العامرة، فلم تعد هذه الديار تصلح لأى شىء من هذا .

ثم أخذ يلتمس العبرة فيما حل بهم من تغير وتبدل بما حل بخلفاء بنى العباس ووزرائهم من البرامكة، وقد كانوا أهل سلطان وعز، فجار عليهم زمانهم بعدما كانوا أصحاب مجد مؤثل، وفضل لا ينكر .

---

(١) ديوان ابن اللبانة ــ ضمن موسوعة الشعر العربى الصادرة عن المجمع الثقافى ــ أبوظبى ــ الإمارات العربية المتحدة ــ الإصدار الثالث،ونفح الطيب: ٤/ ٢١٤، ٢١٥، الذخيرة: ٢/ ١/ ٨٠، ٨١ .

وبعد ذلك عاود الشاعر حديثه عما حل بالمعتمد وأهله فيقول:

كانوا ملوكا ملوك الأرض فانصرفوا ∴ وما لهم حومة فيها ولا نـاد
حموا حريمهم حتى إذا غلبوا ∴ سيقوا على نسق فى حبل مقتاد
تبدلوا السجن بعد القصر منزلة ∴ وأحدقوا بلصوص عوض أجناد
وأنزلوا عن متون الشهب واحتملوا ∴ فويق دهم لتلك الخيل أنداد
وعيث فى كل طوق من دروعهم ∴ فصيغ منهن أغلال لأجياد
وغيرت نشوات اللاذين بهم ∴ بمثل ما قصفوا من كل منآد

ويفصل الشاعر بين هذا الحديث الحزين الطافح بالأسى المصور لما حل بالمعتمد وأهله وبين حديث آخر أشد أسى ولوعة ببيتين نراهما يجسدان المصيبة الذاتية التى لحقت بالشاعر فيقول:

ترى نرى بعد أن قامت قيامتهم ∴ من يوم بعث لهم فينا وميلاد
وهل يكون لهم زند يرى فيرى ∴ لنارهم هبة من بعد إخماد

غير أنه يستدرك فيواصل حديثه عما حل بالمعتمد وأهله فيرسم لوحة باكية عناصرها تلك السفن النكداء التى حملت حريم المعتمد سافرات الوجوه حاسرات الرؤوس ودموعهن باكيات وأصواتهن بالنشيج عالية، وقد تجاوب بكاؤهن وبكاء من خرج فى وداعهن هاتفين بمفاداتهم بالأرواح والأنفس، غير أن السفن الماخرات آخذات فى الإبحار مفرقة بين المحب والمحبوب: بين الراحلين وبين قلوب المودعين التى تعلقت بهم فيقول:

نسيت إلا غداه النهر كونهم ∴ فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ∴ من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع فلم تستر مخدرة ∴ ومزقت أوجه تمزيق أبراد
تفرقوا جيرة من بعدما نشأوا ∴ أهلا بأهل وأولادا بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة ∴ وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفانهم والنوح يصحبها ∴ كأنها إبل يحدوا بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت ∴ تلك القطائع من قطعات أكباد

ويختم الشاعر قصيدته بأبيات عشرة يفصح من خلالها عن حسرته وأسفه على فوات ما كان يصطفيه به المعتمد وبنوه من هبات وعطايا، ويمعن فى تفصيل ما كان يخصه به كل واحد منهم،

وفى هذا ما يجسد المأساة التى يعيشها الشاعر ويبرز الضياع الذى حل به، ويبدو هذا جليا فى البيت الأخير من القصيدة:

إن كان بعدكم فى العيش من أرب ∴ فإن فى غصص عيشى وأنكاد

على هذا النحو من الصدق والعاطفة الحارة جاء رثاء ابن اللبانة لدولة المعتمد صاخبا ومجلجلا، عالى النبرة زاخرا بالألفاظ القوية والعبارات الفخمة، ولعل الرجل أنشأ هذه القصيدة ولم تزل نفسه موارة بالأسى وعاطفته مفعمة بالحزن على ذهاب هذه الدولة، فجاء رثاؤه لها من أروع ما قاله فى رثائها[1]، وكان بحق أصدق من رثاها[2] ولا يعنى هذا أن ما قاله ابن اللبانة من شعر ـ قصائد ومقطعات ـ يقل فى مستواه الفنى والشعورى عن تلك القصيدة، نعم قد يكون أهدأ نبرة منها، إذ قاله بعد أن هدأت نفسه ورضيت بقضاء الله الذى حل، فجاء فى معظمه متسما بعمق النظرة واستيعاب الكائن والتأمل فيه وأخذ العبرة منه، وخير ما يمثل هذا اللون من شعر بن اللبانة فى محنة المعتمد قصيدته التائية التى قالها على إثر زيارة المعتمد فى أغمات وقد شاهده مغلولا فى قيوده مصفدا فى أغلاله، وقد بلغت هذه القصيدة فى ديوانه اثنين وأربعين بيتا، بدأها بقوله[3]:

لكل شىء من الأشياء ميقات ∴ وللمنى من منانيهن غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس ∴ ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج فى يده ∴ وربما قمرت بالبيدق الشاة
انفض يديك من الدنيا وساكنها ∴ فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلى قد كتمت ∴ سريرة العالم العلوى أغمات

(١) تاريخ الأدب العربى ـ الأندلس ـ دكتور شوقى ضيف ـ نشر دار المعارف : ٣٤٢ .

(٢) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ـ دكتور الطاهر أحمد مكى ـ ط دار المعارف سنة ١٩٨١ : ٢٧١ .

(٣) ديوان ابن اللبانة، والمعجب: ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، نفح الطيب: ٤/ ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥٦ .

شتان ما بين مطلع القصيدتين هنا والدالية التى سبقتها، فمطلع الدالية ــ على الرغم من خبريته ــ ينطوى على قدر كبير من الثورة والانفعال وتضخيم الحدث:

تبكى السماء بمزن رائح غادى ∴ على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها ∴ وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

بينما نجد المطلع هنا هادئا رزينا ينطوى على قدر كبير من التأمل والتدبر واستقراء مصائر الأشياء، فكل شىء فى الكون له نهاية ينتهى عندها، وكل شىء خاضع لمشيئة لا قدرة له على مغالبتها، تحركه كيفما شاءت وحسبما أرادت، غير خاضعة لأسباب أو مقدمات، بل ربما جاءت المصائر بخلاف ما تمليه هذه المقدمات (فربما قمرت بالبيدق الشاة) ، فعلى العاقل إذا أن ينفض يديه من الدنيا غير مطمئن إليها ولا راكن لنعيمها، فها هى إشبيلية بعدما كانت عليه من نعيم موفور، ورخاء مشكور قد أقفرت، وبعدما كان عليه أهلها من حيوية وحركة ونشاط قد ماتوا، فعلى الكون كله علويه وسفليه أن يتطامن إزاء ما يشاهده فى أغمات من أهوال، وما يرى عليه حال المعتمد من بؤس وشقاء.

ثم أخذ الشاعر بعد ذلك يفصل بعض معالم هذا البؤس مشيرا خلال ذلك إلى بعض ما كان عليه الرجل فى سالف أيامه فيقول:

طوت مظلتها لا بل مذلتها ∴ من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان للندى والبأس أنصله ∴ هندية وعطاياه هنيدات
رماه من حيث لم تستره سابغة ∴ دهر مصيباته نبل مصيبات
وكان ملء عيان العين تبصره ∴ وللأمانى فى مرآه مرآة
أنكرت إلا التواآت القيود به ∴ وكيف تنكر فى الروضات حيات
غلطت بين همايين عقدن له ∴ وبينها فإذا الأنواع أشتات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست ∴ من رأسه نحو رجليه الذؤابات
حسبتها من قناه، أو أعنته ∴ إذا بها لثقاف المجد آلات
دروه ليثا فخافوا منه عادية ∴ عذرتهم فلعدو الليث عادات
منه المهابات فى الأرواح آخذة ∴ وإن تكن أخذت منه المهابات

لـو كـان يفـرج عنـه بعـض آونـه ∴ قامـت بدعوتـه حتـى الجمـادات

بعد أن أجمل الشاعر ذلك التباين الذى حل بحال المعتمـد فـى أغمات، وتقلب الدهر به، فصل الحديث فى بيان القيد الـذى التـوى حول قدميه فى عدة صور تجمع بين الحقيقة والخيال مبرزا حيرتـه واستغرابه لوقع هذه القيود، فاختلط الأمر عليه فتارة حسبها حيـات تجوس فى الرياض ، وتارة ظنها أحزمة نقوده أو رماحه أو أعنـة خيله، إلا أنه فوجئ بكونها قيودا ، فالتمس علة وجودها حول قدميه محسنا قبح موقفها بأن جعلها ثقافا للمجد وزماما لليث تحول بينـه وبين عاديته المرتقبة، وهو بهذا يعظم من شأن الرجل، على حـين يحقر من شأن معتقليه الذين ملأهم الخوف من المعتمد والخشية من التفاف الناس حوله فضيقوا عليه كل هذا التضييق.

ثم أخذ بعد ذلك فى بيان العوامل التى تجعل من المعتمد بطـلا صالحا لالتفاف الناس حوله، فهو البحر المحيط الذى تتوافـد عليـه بقية البحور، وهو الكوكب المنير الذى تقتبس منه بقيـة الكواكـب أنوارها، فهو وإن أصابه السرار حينا لا شك أنـه سـتنجلى عنـه الظلمة، ويعم بضيائه الأرجاء، وليس فى هذا ما يستغرب، فهو رجل امتدت أصوله فى المجد مسافة بعيدة، طالما التـف حولـه النـاس وطلاب الحاجات فيجدون عنده ما يؤملون.

من هنا ينطلق الشاعر ــ باعتباره واحدا مـن أولئـك الـذين عاشوا فى نعيم الرجل ــ فى بيان ما كانت عليه أيام المعتمـد مـن سعد، وكيف كان هو ينعم فيها بمزيد من التكريم والتقـديم، وكيـف كانت تغدق عليه الهبات والعطايا، فتثير لهات شعره بالحسن البـديع من الأشعار، ولكل ذلك استشعر الرجل عظم الفجيعة حـين رأى مـا عليه المعتمد وقد استحضر كل هذه الصور المشرقة التى كانت عليها سالف أيامه:

معاهـد ليـت أنـى قبـل فرقتهـا ∴ قـد مـت والتاركوهـا ليـتهم مـاتوا

فجعت منهم بإخوان ذوى ثقة ∴ فاتوا وللدهر فى الإخوان آفات

ويعز علينا أن نستعرض كل ما قاله ابن اللبانة فى محنة المعتمد فى هذه العجالة غير أنه لا يخرج فى معظمه عن هذين المنهجين الذين حملتهما القصيدتان الدالية والتائية، فتارة متحفزا ثائرا فى بيان ما يرى من حال المعتمد ، وقد كثرت زياراته له فى معتقله، وتارة معتبرا متأسيا بتقلبات الدهر وتغير أحواله، وهو فى هذا وذاك مبدع مجيد فى تصوير محنة المعتمد وما ألم به وأهله[1].

ثانيا: إذا كان ابن اللبانة قد باشر زيارة المعتمد فى المعتقل؛ فقد أثارت هذه الزيارات ــ فوق ما رآه بعينه يوم أعتقل وحمل هو وأهله إلى بر العدوة فى المغرب ــ كل هذه الطاقة التى عبر عنها بشعر غزير ضمنه كتابه الذى أشرنا إليه[2]، فكانت أشعاره بحق سببا فى بقاء محنة المعتمد حية ماثلة فى الأذهان إلى يومنا هذا[3]، فلم تذكر المصادر التى تحت أيدينا أن ابن حمديس الصقلى زار المعتمد فى معتقله على الرغم مما كان يحظى به من تقديم وإيثار فى بلاط المعتمد[4] ولذلك جاءت أشعاره فى هذه المحنة مبعثها الذكرى واستحضار الماضى الذى كان يحياه فى رحاب المعتمد مقرونا بما ترامى إليه من أنباء عن حال المعتمد وما يعانيه فى أسره، أو كان مبعثها مجاوبة شعر تناقله الناس مما قاله المعتمد فى أسره.

---

(١) نفح الطيب : ٤/ ٩٦ ــ ٩٩، ٢٥٧، ٢٧٤ ، ٢١٦، والذخيرة: ٢/١/ ٦٢ ــ ٦٦، ٧٧ ــ ٨٠، ٣/ ٢/ ٦٨٦، المعجب: ٢٢١، ٢٢٢ .

(٢) يراجع شعر ابن اللبانة فى محنة المعتمد إلى جانب ما سقناه فى ديوانه وفى نفح الطيب: ٤/ ٧٦، ٧٧، ٧٨ ــ ٢١٦ ، ٢١٧ ــ ٢٥٧ .

(٣) تاريخ الأدب العربى ــ الأندلس: ٣٤٣ .

(٤) راجع ما قاله المعتمد فى إعلاء شأن بن حمديس فى ديوان ابن حمديس (٤٤٧ ــ ٥٢٧هـ) ــ صححه وقدم له الدكتور إحسان عباس ــ دار صادر ــ بيروت ١٩٦٠م : ٢٧٠ .

ومن اللون الأول قصيدة قالها ابن حمديس جاءت فى ستة وثلاثين بيتا، أنشدها وقد مر على قصور المعتمد فهاجه ما رأى من تبدل أحوالها وانزواء نعيمها وما أصابها من الإهمال والعفاء، جمع فيها بين ما يحتفظ فى نفسه من ذكريات لهذا الماضى الجميل وبين ما يسمع عن حال قطب هذا الماضى ومرتكز سعده المعتمد بن عباد وقد ترامت الأنباء بما يعانيه من ذل الاعتقال وجور القيود فقال(١):

أباد حياتى الموت إن كنت ساليا ∴ وأنت مقيم فى قيودك عانيا
وإن لم أبار المزن قطرا بأدمع ∴ عليك فلا سقيت منها الغواديا
تعريت من قلبى الذى كان ضاحكا ∴ فما ألبس الأجفان إلا بواكيا
وما فرحى يوم المسرة طائعا ∴ ولا حزنى يوم المساءة عاصيا
وهل أنا إلا سائل عنك سامع ∴ أحاديث تبكى بالنجيع المعاليا

مطلع يبدو فيه الشاعر متأثرا بما ترامى إليه من أنباء المعتمد وما يعانيه فى معتقله من قيود وأصفاد، فهو لهذا دائم الحزن موصول البكاء، ولا يلذ بسعد وإن واتت أسبابه، ولا يأس لحزن وإن طالت أيامه، وكيف لا وقد أقلقه ما سمع من أنباء اعتقال المعتمد وما يعانيه من أصفاد وأغلال أخذ يفصل معالمها فى قوله:

قيودك صغيت من حديد ولم تكن ∴ لأهل الخطايا منك إلا أياديا
تعينك من غير اقتراحك نعمة ∴ فتقطع بالإبراق فينا الليالى
كشفت لها ساقا وكنت لكشفها ∴ تعز الهوادى أو تخر النواصيا
وقفن ثقالا لم تتح لك مشية ∴ كأنك لم تجر الخفاف المذاكيا
قعاقع دهم أسهرتك وطالما ∴ أنامتك بيض أسمرتك الأغانيا

يبرهن الشاعر على فداحة ما أصابه من حزن من خلال هذه المزاوجة بين مفردات الواقع الذى يحياه المعتمد فى معتقله ومناقضاتها مستلهما ما كان عليه حال الرجل أيام سعده، فعلى حين كان يقيد خصومه بقيود الإحسان وسعة البذل، هاهو اليوم مغلول

(١) ديوان ابن حمديس ضمن موسوعة الشعر العربى الصادرة عن المجمع الثقافى ــ أبوظبى ــ الإمارات العربية المتحدة ــ الإصدار الثالث.

بقيود الحديد التى أغلت ساقا فرفعت عنها أثوابها، ولم تكن لترفع إلا لنحر الهوادى إكراما لضيوفه وإمعانا فى البر بهم، أو محلا للتقبيل وشكر النعمة، تلك القيود التى أثقلت حركته وقد كانت خفيفة عند امتطاء صهوات الجياد يوم اشتداد الحرب واحتدام القتال، قيود دهماء ثقيلة أقلقت نومه وأقضت مضجعه، على حين كان عند رغبة النوم محوطا بالجوارى الحسان اللاتى يسعدنه بالسمر والغناء.

يستمر الشاعر فى موازنات يجمع فيها بين الآنى الكئيب والماضى المشرق البهيج مزريا بهذا الواقع الذى يحياه الرجل معليا بسالف أيامه منكرا هذا التبدل الذى حدث حتى يبلغ قمة انفعاله وسخطه عند قوله:

فيا جبلا هد الزمان هضابه ∴ أما كنت بالتمكين فى العز راسيا
قصرت ولما تقضى حاجتك التى ∴ جرى الدهر فيها راجلا لك حافيا
وقد يعقل الأبطال خوف صيالهم ∴ ويحكم تثقيف الأسود ضواريا
أقول وإنى مهطع خوف صيحة ∴ يجيب بها كل إلى الله داعيا
أسير جبال وانتشار كواكب ∴ دنا من شروط الحشر ما كان آتيا

هكذا يغدو هذا التحول الذى حل بحياة الرجل، وتبدل أيامه بعد العز الذى كان فيه معلما من معالم قيام الساعة، وإيذانا بزوال الدنيا وما فيها، ويستمر الشاعر على هذا النحو من الموازنات حتى يصل إلى ذكر المثير الذى أثار انفعاله وفجر مكنون حزنه:

أمر بأبواب القصور وأغتدى ∴ لمن بان عنها بالضمير مناجيا
وأنشد لا ما كنت فيهن منشدا ∴ ألا حى بالزرق الرسوم الخواليا
وأدعو بينها سيدا بعد سيد ∴ ومن بعدهم أصبحت هما مواليا
وأحداث آثار إذا ما غشيتها ∴ فجرت عليها أدمعى والقوافيا
مضيت حميدا كالسحابة أقشعت ∴ وقد ألبست وشى الربيع المغانيا
سأدمى جفونى بالسهاد عقوبة ∴ إذا وقفت عنك الدموع الجواريا
وأمنع نفسى من حياة هنيئة ∴ لأنك حى تستحق المراثيا

فهذه القصور الخاليات تثير فى نفس الشاعر مكنونا من الأسى والحزن حين يراها على هذا النحو من الإهمال والتخريب، بعد أن

كانت زينة الدنيا وبهجتها بهذا الملك الشهم، وأبنائه الزهر الذين فرقوا فى البلاد ما بين طريد محاصر أو معتقل ممتهن، يثير هذا فى نفس الشاعر مكنونا من الحزن يجعله دائم البكاء موصول الأسى، وقد آثر أن يختم النص بما بدأه به من ديمومة الحزن والبكاء وعدم التخلى عنهما وفاء وذكرى لهذا الذى هو جدير بالوفاء والذكرى.

والنص الآخر جاء فى أربعة عشر بيتا[1] قالها ابن حمديس عندما ترامى إلى سمعه قصيدة المعتمد التى مطلعها:

غريب بأرض المغربين أسير ∴ سيبكى عليه منبر وسرير

وفيما يبدو أنها كانت ذات تأثير بعيد فى نفس ابن حمديس استشعر منها ما فيه الرجل من ضيق فأخذ يواسيه ويخفف عنه ما هو فيه من كرب، ويبعث فى نفسه الأمل المرتقب بتغير الأحوال، واستعادة مجد غرب فيقول:

جرى بك جد بالكرام عثور ∴ وجار زمان كنت فيه تجير
لقد أصبحت بيض الظبى فى غمودها ∴ إناثا لترك الضرب وهى ذكور
تجىء خلافا للأمور أمور ∴ ويعدل دهر فى الورى ويجور
أتيأس من يوم يناقض أمسه ∴ وزهر الدرارى فى البروج تدور
وقد تنتخى السادات بعد خمولها ∴ وتخرج من بعد الكسوف بدور
لئن كنت مقصورا بدار عمرتها ∴ فقد يقصر الضرغام وهو هصور

بدأ الشاعر ببيان ما حل بالرجل من تقلب الأحوال وتعثر الحظوظ، فقد أغمدت سيوفه، وحيل بينها وبين الضرب والطعن حتى أصيبت بالوهن والضعف إلا أن هذا الأمر ليس حتمى البقاء، فقد تتبدل الأمور، وتتغير الأحوال فيصفو الدهر بعدما كدر، وتستعيد السيوف عافيتها ونشاطها فتعود لما كانت عليه من رهافة وحدة، ويستعيد بها السادات (يريد بها المعتمد ورجاله) نخوتهم وحميتهم ويسترجعون مجدهم وسالف أيامهم، ولم لا فكم من نجوم كسفت

(١) ديوان ابن حمديس ضمن موسوعة الشعر العربى، والذخيرة: ٢/ ١/ ٧٦، ١/٤/ ٣٢٤، ٣٢٥ .

عاودها البريق واللمعان من جديد، على أن تكون مهيأة وقادرة على استعادة مكانتها وأنت كذلك، فقد عمرت بك دار حبست فيها، فلا تثريب على ضرغام أسر ما دام محتفظا بحيويته وإقدامه ورغبته فى تغيير ما هو فيه، ومن هنا كان إنكاره على أولئك الآسرين الذين توهموا أن الضعف وتوارى الأمل فى نفس الرجل قد بدا فى حديثه الذى تضمنته أبياته (غريب بأرض المغربين أسير...) فقال:

أغر الأسارى أن يقال محمد ∴ غريب بأرض المغربين أسير
تنافس أغلالها فى فكاكها ∴ يقصم فيها بالمصاب ذكور
وكنت مسجى بالظبى من سجونها ∴ بسور لها إن السجون قبور
إلى اليوم لم تذعر قطا الليل فرخها ∴ يغير بها عند الصباح مغير
ولا راح ناد بالمكارم للغنى ∴ يقلبه فى الراحتين فقير

فلا ينبغى أن ينخدع هؤلاء بتلك العبارات التى تخرج من الرجل ساعة ضعفه واشتداد يأسه، فلا شك أن ما هو فيه ليس هينا ولا يسيرا، ومما لا شك فيه كذلك أن المعتمد ليس ضعيفا ولا مستسلما، فلم يحن الوقت بعد وسيجىء حتما ليثير فى نفس أولاده كوامن ما خبا فيبعث فيهم الرغبة فى استعادة ما سلف، وهو مهيأ لذلك حين تواتيه الفرصة، فماضيه خير شاهد على ذلك:

لقد صنت دين الله خير صيانة ∴ كأنك قلب وهو فيه ضمير
ولما رحلتم بالندى فى أكفكم ∴ وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لسانى بالقيامة قد أتت ∴ ألا فانظروا هذى الجبال تسير

وهكذا ختم الشاعر قصيدته بما يشعر بضخامة الحدث واشتداد الأمر وكأن تبدل حال الرجل كان إيذانا بجفاف نبع الكرم وغياب الأمل عن قصادة فقامت قيامتهم وزوى سعدهم.

ثالثا: ما من شك فى أن محنة المعتمد كانت واسعة الأثر، ذائعة الصيت فى أواخر القرن الخامس الهجرى، إذ كان المعتمد نجم هذا القرن ــ دون منازع ــ فى بلاد الأندلس، نال بفضل مكانته وحسن عنايته بالشعراء والأدباء والعلماء مكانا حظيا، فأعجب به

الكثيرون منهم، وتعرضوا له فى كثير من أشعاره فلما حل به ما حل غدا موضع العبرة والاتعاظ، إذ سرعان ما تحول به الدهر من مرتبة سابغة المجد إلى درك سحيق فى المذلة والهوان، فغدا هذا التحول مضرب المثل فى تقلبات الدهر وتغير صروف الأيام، ومن هنا وجدنا كثيرا من الشعراء يلم بهذه المحنة إلماما يتفاوت فى العمق والسطحية بقدر قرب مكانته من المعتمد أو بعدها عنه،أو بقدر بعده عن زمن الحدث أو قربه منه، فكلما زاد قرب الشاعر من المعتمد أو قرب من زمان المحنة كان تأثره بها أكبر، واستحضاره لما حل بالرجل وأهله أوضح وأعظم على نحو ما نجد عند بن عبدالصمد[1] وقد وفد على قبر المعتمد فوجد عنده جماعة من أهل الأندلس والمغرب وصادف أن وصوله كان يوم عيد، فأخذ يطوف بالقبر ويمرغ وجهه فى ترابه، ثم أنشأ قصيدة طويلة لم ينكر من نكر ذلك منها إلا ثلاثة أبيات تنم عن أنها كانت أشبه ما تكون بخطبة استهدف الرجل منها أن يثير فى نفوس الحاضرين من استلهام العظة والعبرة لهذا المصير الحتمى لكل حى، فقال[2]:

ملك الملوك أسامع فأنادى ∴ أم قد عدتك عن السماع عوادى
لما خلت منك القصور ولم تكن ∴ فيها كما كنت فى الأعياد
قبلت فى هذا الثرى لك خاضعا ∴ وجعلت قبرك موضع الإنشاد

(١) هو أبوجعفر أحمد بن عبدالصمد بن أبىعبيدة الخزرجى، فقيه أندلسى من أهل قرطبة ولد سنة ٥١٩ هـ ـ ١١٢٥م، تنقل فى بلاد الأندلس فسكن غرناطة ونزل بجاية، ومنها انتقل إلى فاس وبها توفى بعد أن كف بصره أواخر عمره وكانت وفاته سنة ٥٨٢هـ ـ ١١٨٧م، وله من المؤلفات: كتاب آفاق الشموس وأعلاق النفوس فى أحكام النبى ﷺ وكتاب مفاطع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، راجع فى ترجمته جذوة الاقتباس: ٧٠ وتكملة الصلة القسم الأول ترجمة ١٠٤ ، وتعريف الخلف : ٢/ ٦١، الأعلام ١/ ١٥٠ .

(٢) الذخيرة: ٢/ ١/ ٥٨، ونفح الطيب: ٤/ ٢٢٤، ٢٥٩ .

فالخطابية تبدو فى الأبيات أبرز مما يبدو فيها من تأمل المصيبة وعمق النظرة والاتعاظ بما حدث ، ولعل الشاعر رغب فى إثارة الحاضرين من لاعج الأسى وعظم الحزن ما جعلهم يضجون بالبكاء ويواصلون النحيب على ما نكر بن خاقان.

وإذا كان ابن عبدالصمد قد انتهج الأسلوب الخطابى لأن ملابسات الموقف قد تتطلب ذلك، فإن الوزير أبوالوليد بن طريف[1] يتعمق ما حدث لآل عباد على وجه العموم من المصائب التى رماهم بها الدهر، فأحال ما كانوا فيه من مجد إلى مذلة، ومن عز إلى هوان، فهو بذلك حرى بألا ينخدع به منخدع، ولا يركن إليه راكن، بعد أن غدر بهؤلاء الذين كانوا مقصد طلاب الحاجات وموئل الراغبين، فقال[2]:

يا آل عباد ألا عطفة ∴ فالدهر من بعدكم مظلم
من الذى يرجى لنيل العلا ∴ ومن إليه يفد المعدم
ما أنكر الدهر سوى أنه ∴ بجودكم فى فعله يرغم

وإذا كان ابن عبدالصمد وابن طريف قد تناولا المحنة عن قرب وملابسة، فإن من الشعراء من نظر إليها فى سياق العبرة العامة التى ينبغى أن ينظر إلى تصاريف الدهر من خلالها، فالدهر على وجه العموم فى نظر هؤلاء قلب غير مستقر لا يبقى شيئا على حال واحدة، وإنما هو يتقلب بأهل كل زمان كيفما أراد، ومن هؤلاء أبومحمد عبدالله بن إبراهيم الحجارى[3] (صاحب كتاب "الحديقة" وعم

(١) لم نعثر له على ترجمة .
(٢) نفح الطيب: ٣/ ٤٢٩ .
(٣) هو أبومحمد عبدالله بن إبراهيم بن وزمر الصنهاجى الحجارى صاحب كتاب الحديقة فى البديع، ترك بلده ــ وادى الحجارة ــ إلى دانيه حيث قصد إقبال الدولة ومدحه وقصد إلى بلنسية ومدح ملكها أبوبكر بن عبدالعزيز، وله مع المعتمد صلات نقل كثيرا منها ابن أخيه صاحب المسهب وذكر أن الحجارى زار المعتمد فى أغمات،

الحجارى صاحب المسهب) على الرغم من سابق صلته بالمعتمد أيام عزه وزيارته له أيام محنته، قد نظر إلى ما حل بالمعتمد نظرة فيها شمولية تتساوق مع طبيعة تقلبات الدهر وتغير أحداثه فيقول[1]:

يا طالب الإنصاف من دهره ∴ طلبت أمرا غير معتاد
فلو يكون العدل فى طبعه ∴ لما عدا ملك ابن عباد

يوجه الحجارى حديثه على وجه العموم لمن يطلب الإنصاف من الدهر لينبهه إلى خطأ مقصده، ويستدل على صدق ما يقول بهذا الدليل الماثل فى أذهان الناس جميعا، وهو ما أحدثه الدهر فى ابن عباد، لكن ابن عبدون[2] فى بكائه على بنى الأفطس كان أطول نفسا من الحجارى وأكثر تنويعا فى سوق الدليل على تقلب الدهر بأهله، فبينما الحجارى يكتفى بدليل واحد على تقلبات الدهر (ما فعله فى بنى

ولم يذكر من أرخ له زمان أو مكان وفاته، راجع المغرب: ٢/ ٣٤، ونفح الطيب : ٢/ ٣٨٦ .

(١) نفح الطيب: ٣/ ٥٧١، ٥٧٢ .

(٢) هو أبومحمد عبدالمجيد بن عبدالله بن عبدون الفهرى ، أديب الأندلس فى عصره ــ استوزره بنوالأفطس فى بطليوس، وبعد انقضاء دولتهم على يد المرابطين ، انتقل إلى خدمة المرابطين وكان كاتبا مترسلا عالما بالتاريخ والحديث، له كتاب الانتصار لأبىعبيدة البكرى على ابن قتيبة، توفى حيث ولد فى وبره سنة ٥٢٩هـ، راجع ترجمته فى الصلة ترجمة ٣٨٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية: ١/ ٣٢٥، والمعجب: ٧٦، والمغرب: ١/ ٣٧٤، وفوات الوفيات: ٢/ ٨، والأعلام: ٤/ ١٤٩ .

عباد) لا يكتفى ابن عبدون بهذا الدليل بل يسوقه ضمن أدلة أخرى فيقول فى مقدمة قصيدة يرثى فيها دولة بنى الأفطس[1]:

ما منك يا موت لا واق ولا فاد	∴	الحكم حكمك فى القارى وفى البادى
قدم أناسا وأخر آخرين فلا	∴	عليك يا مورد الحادى على الهادى
يا نائم الليل فى فكر الشباب أفق	∴	فصبح شيبك فى أفق النهى بادى
سلنى عن الدهر تسأل غير إمعة	∴	فألق سمعك واسمع لإيرادي
نعم هو الدهر ما أبقت غوائله	∴	على جديس ولا طسم ولا عاد
ألقت عصاها بنادى مأرب ورمت	∴	بآل مامة من بيضاء سنداد
وأسلمت للمنايا آل مسلمة	∴	وعبدت للرزايا آل عباد
ما لليالى أقال الله عثرتها	∴	منها تصرع أضدادا بأضداد
فلت قنا سمهر شلت أناملها	∴	بعود طلح وأسيافا بأغماد

وظلت محنة المعتمد ماثلة فى أذهان الناس زمنا طويلا بعد حدوثها تلهم المعتبر العبرة، وتزكى فى قلب المتعظ العظة ما دعا داع إلى ذلك، أو حدث من الملابسات ما يستوجبه، فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب[2]، وهو من أبناء القرن الثامن الهجرى أنه زار قبر

(١) ديوان ابن عبدون ــ ضمن موسوعة الشعر العربى ــ الإصدار الثالث ، ونفح الطيب: ٤/ ٩٨ .

(٢) هو محمد عبدالله بن سعيد السليمانى، أصله من لوشة من أعمال غرناطة وكنيته أبو عبدالله ولقب لسان الدين بن الخطيب، وزير مؤرخ أديب نبيل، ولد وتربى فى غرناطة سنة ٧١٣هـ ــ ١٣١٣م، وذاع صيته بها حتى استوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن الأحمر سنة ٧٣٣هـ ثم وزر من بعده لولده الغنى بالله، ولما عظمت مكانته عند الغنى بالله كثرت السعايات والوشايات حتى ضاق ابن الخطيب بها فانتقل إلى دولة بنى مرين فى تونس سنة ٧٧٣هـ وبالغ المرينيون فى إكرامه، واستقدم أهله من غرناطة مكرمين وعظمت مكانته فى فاس وبعد وفاة السلطان عبدالعزيز وزر لولده السعيد بالله، ثم أفضى أمر ابن الخطيب من بعد ذلك إلى أن حمل عنوة إلى الغنى بالله، ووجهت إليه التهمة بالزندقة، وسلوك

المعتمد، فأهاجت زيارته ذكرى ما حدث له، فقال[1]:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ∴ رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا ∴ ويا سراج الليالى المدلهمات
وأنت لو تخطى الدهر مصرعه ∴ إلى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرك فى هضب يميزه ∴ فتنتحيه صفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت علا ∴ فأنت سلطان أحياء وأموات
ما رئ مثلك فى ماضى ومعتقدى ∴ أن لا يرى الدهر فى حال وفى آت

على هذا النحو كانت محنة المعتمد بن عباد ذات تأثير بعيد فى الشعر الأندلسى واتضح أثرها جليا فى شعر المعتمد وفى شعر غيره، حتى ليصبح من الممكن أن نستقرئ معالم هذه المحنة وتأثيراتها وأبعادها من خلال الشعر الذى قيل فيها، إذ يقدم هذا الشعر إلى جانب ما يثيره فينا من مشاعر التعاطف والإشفاق لما حدث للرجل فى محنته ـ تأريخا مفصلا تتضح منه تفاصيل هذه المحنة بكل جزئياتها وأبعادها على نحو دقيق ومفصل غاية فى الدقة والتفصيل.

مذهب الفلاسفة بإيعاز من وزير الغنى بالله وتلميذ ابن الخطيب ابن زمرك الشاعر، فأفتى بعض الفقهاء بقتله، فأودع السجن إلى أن دخل عليه بعض الأوغاد فخنقوه، ودفن فى مقبرة بفاس سنة ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٤م، وله العديد من المؤلفات من أشهرها كتابه الإحاطة فى أخبار غرناطة،وكتاب الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام،وكتاب الحلل الموشية، وغيرها، وله ديوان شعر مطبوع بالمغرب، راجع فى ترجمته نفح الطيب فقد كتب هذا الكتاب فى تقصى أخبار ابن الخطيب، وجذوة الاقتباس: ٢/٨، والاستقصا: ٢/ ١٣٢، والدرر الكامنة: ٣/٤٦٩، ودائرة المعارف الإسلامية: ١/ ١٦٠، ومقدمة الإحاطة تحقيق محمد عبدالله عنان، الأعلام : ٦/٢٣٥.

(١) نفح الطيب: ٤/ ٩٨ .

-٤-

النتاج الشعرى الذى صاحب هذه المحنة جاء فى معظمه حافلا بالعاطفة غنيا بالصدق، يضم إلى جانب ذلك طريفا من الصور فى تنويع كبير لا يخفى عند أدنى تأمل، يشترك فى ذلك الحكم ما قاله المعتمد من شعر وما قاله غيره من الشعراء وإن تفاوتت هذه التجارب فى هذه العناصر وبروزها بشكل لافت، أو تواريها وخفوتها، حتى لا تكاد تبين، وتفصيل هذا القول يحتم علينا النظر فى هذا النتاج الشعرى الذى خلفته محنة المعتمد من خلال عدة محاور:

أولها: يدور حول ما تحفل به التجربة الشعورية فى هذا النتاج الشعرى بين الانفعال والتأمل، وبين اليأس والأمل، فالمعتمد يحاول التعايش مع واقعه فى معتقله، على الرغم مما يمور بداخله من عوامل البغض لهذا المعتقل، إلا أنه يبدو موزعا بين اليأس من تغيير ما حل به والأمل الكامن فى نفسه فى تغييره فيقول(١):

اقنع بحظك فى دنياك ما كانا ∴ وعز نفسك إن فارقت أوطانا
فى الله من كل مفقود مضى عوض ∴ فأشعر القلب سلوانا وإيمانا
أكلما سنحت ذكرى طربت لها ∴ مجت دموعك فى خديك طوفانا
أما سمعت بسلطان شبيهك قد ∴ بزته سود خطوب الدهر سلطانا
وطن على الكره وارقب إثره فرجا ∴ واستغفر الله تغنم منه غفرانا

تبدو هذه الثنائية ــ بين اليأس والأمل ــ جلية واضحة فى هذه الأبيات فطى نحو ما يبدو الأمل خافتا متواريا فى البيت الثانى الذى

(١) نفح الطيب: ٤/ ١١٦ .

يأتى فى ثوبه الخبرى ينشد العوض من الله فيما فقد، تدفعه عوامل اليأس فى بقية الأبيات،وتبدو هذه العوامل فى شيوع الأسلوب الإنشائى حافلا بهذه الأوامر:اقنع ــ عز ــ وطن ــ ارقب ــ استغفر، فكل أمر متبوع بما يشعرنا باستحواذ اليأس على فؤاد الرجل، فالأمر الأول (اقنع) يدعوه إلى الرضى بهذا القدر من حظه الممنوح فى الدنيا، والثانى (عز) يحمله على سلوان ما فارق من أوطان، والأمر الثالث (وطن) يحثه على معايشة ما يكره، بينما الرابع (ارقب) يطلقه على استحياء ينشد من خلاله الفرج لما هو فيه، غير أنه سرعان ما يفيق من وهمه فيأتى الأمر الخامس (استغفر) وكأنه أحدث ذنبا لابد له من لوم نفسه عليه .

وبجانب الأمر يأتى الاستفهام فى ثوبه التعجبى أقرب إلى لوم النفس وتقريعها حين يتراءى الأمل فى الخلاص مما هو فيه، يدعوه إلى الاستسلام للكائن فيجذر عوامل اليأس فى نفسه:

أكلما سنحت ذكرى طربت لها ∴ مجت دموعك فى خديك طوفانا
أما سمعت بسلطان شبيهك قد ∴ بزته سود خطوب الدهر سلطانا

على حين يطغى اليأس فى هذه التجربة طغيانا لا يكاد يبدو الأمل من خلاله إلا على هذا النحو الخافت، نجد المعتمد وقد تفجرت فيه طاقات الأمل والرغبة فى التخلص مما هو فيه، واستعادة مجد كاد يزوى فى هذا المعتقل الكئيب حين ترامت إلى سمعه أخبار ثورة ولده عبدالجبار، والتفاف الناس حوله ومنابذته للمرابطين فى تحد وما أحرزه من انتصارات عليهم[1] ــ نجد الأمل فى تغيير الواقع هو العنصر السائد فى قول المعتمد[2]:

ألا شرف يرحم المشرفى ∴ مما به من شمات الوتين
ألا كرم ينعش السمهرى ∴ ويشفيه من كل داء دفين

(١) راجع ثورة عبدالجبار بن المعتمد ضد المرابطين فى دول الطوائف: ٣٦٠، ٣٦١

(٢) ديوان المعتمد ، نفح الطيب: ٤/ ٢٢٠ .

ألا حنـــة لابـــن محنيـــة ∴ شـديد الحـنين ضـعيف الأنـين
يؤمـــل فـــى صـــدرها ضـــمة ∴ تبـــوؤه صـــدر كـــف معـــين

فثورة المعتمد هنا أظهر من أن تخفى، وإبداء رغبته فى تغيير ما هو فيه ومعاودة نشاطه فى إثبات ذاته معالم يبرز من خلالها هذا الأمل الطامح إلى التغيير المنشود وعلى حين كـان الاسـتفهام فـى التجربة السابقة وسيلة فى تجذير اليأس ، يبدو هنا عاملا مهما فـى تفجير طاقات من الأمل من خلال هذا الحث والتحريض الذى يحملـه أسلوب الاستفهام.

والعامل المؤثر فى محورة التجربة حول اليأس أو الأمل، هـو الظروف المحيطة بها عند إنشائها[1]، فحين كان المعتمد فى معتقلـه مهيض الجناح عاجز الحيلة مغلقة كل سبل النجاة ــ أو هكذا ظن ــ فى وجهه، وجدنا عامل اليأس هو السائد فى تجربته، بينما ساد الأمل جليا حين لاحت له بوارق التغير بثورة ولده وما ترامى إلى سـمعه مما يمكن أن يعده بدايات فى تغيير الكائن ولعل المعتمد كان يـؤمن إيمانا يقينيا فى أنه محل محبة الناس، وأنه قـادر لـو أتيحـت لـه الظروف فى التخلص من هذا المعتقل أن يعيد مجـده الـذى سـلب، وعرشه الذى زال، ونجد الشعراء يعمقون فى نفسه هذا الإحسـاس على نحو ما أشار إلى ذلك ابن اللبانة فى قوله[2]:

دروه ليثـا فخـافوا منـه عاديـة ∴ عـذرتهم فلعـدو الليـث عـادات
منـه المهابـات فـى الأرواح آخـذة ∴ وإن تكـن أخـذت منـه المهابـات
لـو كـان يفـرج عنـه بعـض آونـة ∴ قامـت بدعوتـه حتـى الجمـادات
بحـر محـيط عهـدناه تجـىء لـه ∴ كنقطـة الـدارة السـبع المحيطـات
وبـدر سـبع وسـبع تسـتنير بـه ∴ السبع الأقاليم والسبع السماوات
لـه وإن كـان أخفـاه السـرار سـنى ∴ مثل الصباح تجلى به الدجنات

(١) راجع التجربة الشعرية بين النظرية النقدية والتطبيق النصـى ــ ناجى فؤاد بدوى ــ ط١ ١٩٩٣م : ١٣ وما بعدها .
(٢) ديوان ابن اللبانة ــ ضمن موسوعة الشعر العربى.

وإذا كانت الظروف المحيطة بتجربتى المعتمد هى التى وشحت إحداهما باليأس وتوجت الأخرى بالأمل، فإن الظروف التى أحاطت بابن اللبانة وقد رأى ممدوحه يساق أمامه مغلولا فى قيوده مكرها على مغادرة ملكه فى سفينة نحو الشاطئ الآخر، مشيعا بصراخ وعويل محبيه أثارت فى نفسه مشاعر الانفعال والثورة فصاغ تجربته (الدالية) فى رثاء دولة المعتمد، والتى أشرنا إليها من قبل تفصيلا، على حين عرض لرثائهم مرة أخرى وقد هدأت نفسه وانطفأت جذوة ثورته فوجدناه فى هذه المرة هادئ النفس يستلهم العبرة ويستحضر المثل فى قصيدته (التائية) والتى كانت هى الأخرى محل دراستنا فيما سبق.

والمحور الثانى: الذى ننظر من خلاله ــ فنيا ــ للشعر الذى خلفته محنة المعتمد دور الصورة الفنية فى إبراز بعض معانى هذا الشعر، وتشكيلها فى لوحات فنية جديرة بالتقدير والإعجاب،ومن أبرز هذه الصور:

١ - صورة القيد الذى التف حول يدى المعتمد وقدميه، وقد حفل هذا المشهد بعناية من تناول هذه المحنة من الشعراء، وكان المعتمد على رأس هؤلاء فى رسم معالم هذا القيد، وأكثرهم تفصيلا فى تصوير هذه المعاناة غير أن تفصيله لهذه الصورة ورسم ملامحها لم يكن من طبقة واحدة، فعلى حين اكتفى بهذه الصورة المجملة للقيد فى قوله:

تبدلت من عز ظل البنود ∴ بذل الحديد وصقل القيود
وكان حديدى سنانا ذليقا ∴ وعضبا رقيقا صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهما ∴ يعض بساقى عض الأسود

فالحديد الذى كان فى يديه رماحا ذليقة وسيوفا مرهفة، غدى اليوم قيودا دهما تعض بساقيه عض الأسود، فمن خلال هذه الاستعارة العجلة جعل من قيوده أسدا مفترسا ينهش فى عظام قدميه،

وفيما يبدو أن هذه الصورة ـ الجمع بين آلاته الحربية وقيوده ـ كانت أكثر إلحاحا على المعتمد فقد عمد إليها أكثر من مرة إلا أنه فى كل مرة كان يأتيها لماما على نحو ما جاء فى الصورة السابقة، وفى قوله[1]:

قد كان كالثعبان رمحك فى الوغى ∴ فغدا عليك القيد كالثعبان
متمددا يحميك كل تمدد ∴ متعطفا لا رحمة للعانى

فقد أخذ فى القران بين صورة لين الرمح فى يده، والتفافه كالثعبان فى إصابة خصمه، وبين صورة القيد والتفافه حول قدميه كالثعبان ، لكن شتان ما بين التفاف والتفاف، فقد كان التفاف رمحه علامة مهارة وفروسية، بينما التفاف قيده هنا مبعث ذلة ومعاناة.

وإذا كانت صورة القيد فيما ذكرنا من شعر المعتمد جاءت على دقتها وجمالها سريعة غير مفصلة، لكنها على الرغم من هذا جاءت تحمل فى رحابها حيوية وحركة فى التواآتها ودائريتها ونهشها.

وصورة أخرى جاءت للقيد فى شعر المعتمد أكثر حيوية وتنويعا من خلال قول المعتمد[2]:

قيدى أما تعلمنى مسلما ∴ أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد ∴ أكلته لا تهشم الأعظما
ارحم طفيلا طانشا لبه ∴ لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله ∴ جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد ∴ خفنا عليه للبكاء العمى
والغر لا يفهم شيئا فما ∴ يفتح إلا لرضاع فما

فقد جاء القيد فى هذه الصورة عاقلا محاورا يخاطبه المعتمد بهذا الخطاب المسترحم الراغب فى رفق المعاملة من مخاطبه، ويقدم فى خطابه مبررات طلب الرحمة بعد أن بين قسوة هذا المخاطب (القيد) الغليظ الجافى الطبع المجرد من الرحمة والإشفاق، فقد

(١) ديوان المعتمد، نفح الطيب: ٤/ ٢٢٠ .
(٢) الذخيرة: ٢/ ١/ ٧٣، ٧٤ .

استنزف دمه، ونهش لحمه ولم يعد أمامه إلا أن يهشم عظامه، وليته يكتفى بما فعل رفقا به وبولده الذى يراه على ما يرى فيذرف سخين الدمع فتشفق عليه أخياته اللاتى لا يقل اشفاقهن على أبيهن عن إشفاق ذلك الطفل الصغير .

والصورة هنا كما نراها حية نابضة بالحياة فعناصر تكوينها بما فيها القيد كلها متفاعلة متحركة، وهى بهذا تربو بتفاصيلها ومحتوياتها وأسلوب تكوينها على ما تقدم من صور أبرزت لنا قيد المعتمد فى هذه الصورة الكئيبة .

ولم يكن المعتمد وحده ـ كما سبق أن أشرنا ـ هو الذى عرض لصورة قيده بل تناولها الشعراء فى حرفية أكثر تلوينا وتنويعا، على نحو ما قال ابن حمديس[1]:

قيودك صيغت من حديد ولم تكن ∴ لأهل الخطايا منك إلا أياديا
تعينك من غير اقتراحك نعمة ∴ فتقطع بالإبراق فينا اللياليا
كشفت لها ساقا وكنت لكشفها ∴ تحز الهوادى أو تخر النواصبا
وقفن ثقالا لم تتح لك مشية ∴ كأنك لم تجر الخفاف المذاكيا

فقد رسم الشاعر هذه الصورة بحرفية لا تتوفر للمعتمد، فأقام عناصرها من خلال قران بين واقع المعتمد مقيدا مغلولا وبين ما يناقض هذا الواقع فى ماضى الرجل المشرق الزاهر، فقيود الرجل هنا المكبلة له صنعت من حديد كئيب قاس، بينما كانت قيوده لخصومه مننا وعطايا تكبل أعناقهم خضوعا له ، وتنطق ألسنتهم بالثناء عليه، وقيد الحديد الذى يغل حركة المعتمد كشف عن ساق لم تكن لتنكشف إلا لنحر الهوادى إكراما لضيوفه واحتفاء بهم أو تقبيل أصحاب الحاجات لها إكبارا للمعتمد، وإجلالا لمكانته، وتلك القيود الثقيلة التى أعاقت حركته، فحالت بينه وبين ما كان يألف من خفة وحركة فى امتطاء صهوات الجياد محاربا باسلا، ومقاتلا شجاعا، ولم

(١) ديوان ابن حمديس ضمن موسوعة الشعر العربى .

يكن ابن اللبانة حين وصف قيد المعتمد أقل حرفية أو تنويعا فى رسم هذه الصورة من ابن حمديس، بل إلى جانب ما تنعم به صورته للقيد من حرفيه وتنويع، أضاف بعدا جديدا يجمع بين القران الذى رأيناه فى صورة ابن حمديس، وقران آخر مستوحى من صنيع المعتمد فى الجمع بين آلاته الحربية وقيوده، فيقول[1]:

أنكرت إلا التواآت القيود به ∴ وكيف تنكر فى الروضات حيات
غلطت بين همايين عقدن له ∴ وبينها فإذا الأنواع أشتات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست ∴ من رأسه نحو رجليه الذؤابات
حسبتها من قناه أو أعنته ∴ إذا بها لثقاف المجد آلات

فالصورة هنا قائمة على وصف مشاهد رآها ابن اللبانة بعينيه لتلك القيود التى التفت حول رجلى المعتمد ويديه، فاستخدم ملكته التصويرية فى رسم هذه الصورة، وهى برغم أساها تشف عن صنيع فنان ماهر، وشاعر متميز لم ينكر شيئا مما رآه من واقع المعتمد: إنكاره لهذه الصورة البشعة التى غلت المعتمد على هذا النحو فأصابت الرجل بشىء من الاضطراب والخلل جعلته لا يميز أو لعله لا يصدق ما يرى، فقد رأى القيود تجمع بين قدمى الرجل ويديه فتخيلها حيات تتلوى، أو لعلها أوشحته التى كان يتحلى بها أيام سعده ولكن هيهات بين ما كان يتحلى به فيما مضى، وبين ما يعذب به الآن، أو لعلها ذؤابات الرجل، ولكن كيف تجمع الذؤابات بين رأس الرجل وقدميه؟!! أو لعلها رماحه التى كان يتقلدها فى حروبه أو أعنة خيله يمسكها بيده، غير أن الرجل يفيق من هذه الخيالات ويصحوا على هذا الواقع المرير فما رآه ما هو إلا قيود وأصفاد غل بها الرجل، فحالت بينه وبين ما كان يعرفه فى الرجل من مجد وسؤدد.

وصورة القيد من خلال ما قدمنا تبدو فى شعر المعتمد أكثر حيوية وصدقا وأفعل فى تأجيج العاطفة، وأدل على الصدق فى التعبير

(١) ديوان ابن اللبانة ضمن موسوعة الشعر العربى.

عن مأساة قيد المعتمد من الصور التى أتت فى شعر غيره، وإن كانت صور غيره للقيد أكثر حرفيه وأدخل فى باب الفن من صنيع المعتمد، ويربو ابن اللبانة فى هذين العنصرين (الحرفية ومقتضيات الفن الشعرى) على ابن حمديس.

٢ - صورة قصور المعتمد، وما كانت تحظى به إشبيلية من معالم الجمال . وجاءت هذه الصورة فى معرض الذكرى لتلك الأيام الخوالى، التى كانت محل سعد المعتمد وإقبال أمره حين كان يدعو الموقف لاستحضار هذه الفكرة وقد جاءت هذه الصورة سريعة خاطفة فى شعر المعتمد فى قوله[١]:

بكى المبارك فى إثر ابن عباد ∴ بكى على إثر غزلان وآساد[٢]
بكت ثرياه لا غمت كواكبها ∴ بمثل نوء الثريا الرانح الغادى
بكى الوحيد بكى الزاهى وقبته ∴ والنهر والتاج كل ذله بادى
ماء السماء على أفيانه درر ∴ يا لجة البحر دومى ذات إزباد

فالصورة هنا ــ على وجازتها ــ تحمل قدرا كبيرا من التجاوب النفسى بين ما حل بالمعتمد، وبين ما تصور حدوثه من بكاء القصور ونشيجها، فها هى ذى القصور وأبرز معالمها تبكى لفراق ابن عباد، ذلك الذى كان مبعث بهجتها ونضارتها، والصورة على هذا النحو بجانب ما تحمله من حيوية وحركة مبعثها هذه الاستعارة المكنونة فى كل من الفعلين (بكى ــ يبكى) تحمل قدرا كبيرا من الطاقات العاطفية التى يبوح بها تعبير الشاعر والذى تكرر على هذا النحو السابق أكثر من مرة، على نحو ما جاء فى قوله[٣]:

غريب بأرض المغربين أسير ∴ سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا ∴ وينهل دمع بينهن غزير
سيبكيه فى زاهيه والزاهر الندى ∴ وطلابه والعرف ثم نكير

(١) ديوان المعتمد بن عباد ــ تحقيق أحمد بدوى،حامد عبدالمجيد : ٩٥ .
(٢) المبارك والوحيد والزاهى أسماء قصور للمعتمد بن عباد .
(٣) ديوان المعتمد بن عباد ضمن موسوعة الشعر العربى.

وهذه الصورة وأمثالها برغم وجازتها إلا أنها تعبر عن عاطفة حارة وفؤاد مضطرب آس لما حدث، وهى على الرغم من هذا الإيجاز تحتوى على قدر لا بأس به من جمال التصوير ودقته وقدرة متفردة فى توظيف أدوات التصوير من استعارة وتكرير وتشخيص ٠

وليس هذا النمط وحده لمعالم الجمال فى إشبيلية هو السمة البارزة فى تصوير ابن عباد لهذه المعالم، بل كان أحيانا يجنح إلى رسم لوحات تركيبية تعاونت صورها الجزئية فى حمل قدر كبير من عواطفه الجياشة المشبوبة ، وفى رسم لوحات تتداخل ألوانها وتتعاضد أشكالها فى رسم لوحة كلية غاية فى الجمال والدقة، وغاية فى إبراز قدر كبير من مشاعر الحزن عند الرجل على نحو ما جاء فى قوله:

فيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ∴ أمامى وخلفى روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ∴ يغنى حمام أو ترن طيور
بالزاهر السامى الذرى جاده الحيا ∴ تشير الثريا نحونا وتشير
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده ∴ غيورين والصب المحب غيور(١)
تراه عسيرا أو يسيرا منالـه ∴ ألا كل ما شاء الإلـه يسير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت ∴ هنالك عنا للنشور قبور

فالصورة هنا رحبة فسيحة الأرجاء متعددة الظلال منوعة الألوان تجمع بين حدة اللون، وقوة الحركة، فالحدة تبدو من خلال (فيا ليت شعرى ــ هل أبيتن ــ أمامى وخلفى منبر وسرير ــ بمنبتة الزيتون ــ مورثة العلا) والنشاط الحركى يبدو من خلال (يغنى حمام ــ ترن طيور ــ تشير نحونا الثريا ــ نشير ــ يلحظنا الزاهى ــ وسعد السعود ــ وغيرة الصب المحب ــ قضاء الله فى حمص الحمام ــ وبعثرة قبورهم عند نشرهم) ٠

وصورة معالم إشبيلية وما فيها من جمال جاءت ــ كذلك ــ فى شعر الشعراء الذين تناولوا محنة المعتمد تجمع بين الإيجاز وسرعة التناول وبين التفصيل وتتبع جزئيات الصورة، لكنها فى هذا

(١) الزاهى وسعد السعود اسما قصرين للمعتمد بن عباد ٠

وذاك كانت على الرغم من جمالها وحرفيتها أقل فى حمل العاطفة المشبوبة ، وبعث الأسى والتأسى مما كانت عليه صورة المعتمد فقد تناول ابن حمديس حين مر على قصور المعتمد فوجدها خالية من ساكنيها تصوير هذا الواقع الكئيب فى قوله(١):

أمر بأبواب القصور وأغتدى ∴ لمن بان عنها فى الضمير مناجيا
وأنشد لا ما كنت فيهن منشدا ∴ ألا حى بالزرق الرسوم الخواليا
وأدعو بنيها سيدا بعد سيد ∴ ومن بعدهم أصبحت هما مواليا
وأحداث آثار إذا ما غشيتها ∴ فجرت عليها أدمعى والقوافيا

فالصورة هنا فى الواقع صورة الرجل عند مشاهدته القصور، وليست صورة القصور، نعم أبرز لنا الرجل حزنه وتأثره حين رأى القصور خالية وقد مر على أبوابها من خلال مروره بالقصور وتطوافه بها ومناجاة ضميره لمن بان عنها، وإنشاده أطلالها ورسومها، ودعوته بنيها الذين لا يجيبونه، وما أصبح عليه حاله بعد تغير هذا الواقع، وكيف أنه (فجر) عليها دمعه وقوافيه، وواضح ما فى صورة ابن حمديس من تواضع فى العاطفة برغم محاولته إظهارها، ويبدو هذا التواضع فى هذا الافتعال فى تفجير الدموع والقوافى، وهو مع هذا مجيد لرسم صورته من الناحية الفنية ، فقد منحها قدرا من الحركة والحيوية تبدو من خلال الأفعال الكثيرة التى أسندها إلى نفسه (أمر ــ أغتدى ــ أنشد ــ حى ــ أدعو ــ أصبحت ــ غشيتها ــ فجرت) وما تحمله هذه الأفعال بمسنداتها من طاقات تنبض بالحياة والحركة.

إذا كان هذا حال تصوير بن حمديس لمعالم إشبيلية وقصورها، فقد كان ابن اللبانة، أحسن وأكثر تجاوبا فى تصوير هذه المعالم، فجاءت صوره تجمع بين جمال الصياغة، وفنية التصوير، وبعث قدر من التجاوب العاطفى الحزين فى نفس متلقيه على نحو ما جاء فى قوله(٢):

(١) ديوان ابن حمديس ضمن موسوعة الشعر العربى .
(٢) ديوان ابن اللبانة ضمن موسوعة الشعر العربى .

وكنا رعينا العز حول حماهم ∴ فقد أجدب المرعى وقد أقفر الحمى
وقد ألبست أيدى الليالى قلوبهم ∴ مناسج سدى الغيث فيها وألحما
قصور خلت من ساكنيها فما بها ∴ سوى الأدم تمشى حول واقفة الدمى
يجيب بها الهام الصدى ولطالما ∴ أجاب القيان الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى ∴ بها الوفد جمعا والخميس عرمرما

فهو يستحضر صورة ما زالت ماثلة فى ذهنه تتراءى أمام عينيه يعكر صفوها هذا الآنى النكد، تقوم تلك الصورة المستدعاة من الذاكرة على مزاوجة بين الماضى والحاضر، ففيما مضى كان العز مرعى خصيبة أرجاؤه عامرة أنحاؤه ينعم فيه طلاب الحاجات، والشاعر من بينهم، وهذه الصورة المشرقة للماضى يقابلها صورة حاضر كئيب، فقد أجدب مرعى العز، وأقفر حماه وذوت معالمه، وتلك القصور التى غدت اليوم لا تسكنها إلا الأشباح، ولا يتردد فيها إلا صوت الهام يملأ الجو رعبا، وكأنها لم تكن يوما مرتعا للقيان السارحات اللاعبات المطربات اللاتى كن يجاوبن الطير بغنائهن، وكأنها لم تكن كذلك موئل الوفود، ومحط رحال الجيوش منها تنطلق وإليها تعود مكللة بالظفر والنصر، وواضح أن الصورة المستوحاة من ذاكرة الشاعر تقوم على رسم صورة معجبة للقصر وما حوله، وما يمور فيه من حركات قيانه وغنائهن، وهى صورة باعثة على الأسى إذا ما استحضرناها فى سياق هذا الواقع الذى عمل الشاعر على إبراز قبحه فى صورة كئيبة كريهة إلى النفس.

وإذا كانت صورة ابن اللبانة تقوم فيما قدمنا على مقابلة صور جزئية بأخرى تعاكسها، فقد جاءت صوره أحيانا تقوم ابتداء على رسم صورة كلية لبعض معالم الجمال فى إشبيلية دليلا على ما كان ينعم به المعتمد وآله فى نحو قوله[1]:

راح الحيا وغدا منهم بمنزلة ∴ كانت لنا فيها بكر وروحات
أرض كأن على أقطارها سرجا ∴ قد أوقدتهن فى الأذهان أنبات

(١) ديوان ابن اللبانة ــ ضمن موسوعة الشعر العربى.

وفوق شاطئ واديها رياض ربى ∴ قد ظللتها من الأنشام دوحات
كأن واديها سلك بلبتها ∴ وغاية الحسن أسلاك ولبات
نهر شربت بعبريه على صور ∴ كانت لها فى قبل الراح سورات
وكنت أورق فى أيكاته ورقا ∴ تهوى ولى من قريض الشعر أصوات
وكم جريت بشطى ضفتيه إلى ∴ محاسن للهوى فيهن وقفات
وربما كنت أسمو للخليج به ∴ وفى الخليج لأهل الراح راحات
وبالفروسات لا جفت منابتها ∴ من النعيم غروسات جنيات
معاهد ليت أنى قبل فرقتها ∴ قدمت والتاركوها ليتهم ماتوا

فهذه الصورة تنقل لنا لوحة كلية عناصرها مطر يتساقط غدوة وروحة على أرض أخذ الشاعر يفصل أبرز معالمها معلما معلما، ومن أبرز هذه المعالم واديها ونهرها وخليجها، والشاعر يرسم كل معلم من هذه المعالم رسما تفصيليا يجمع فيه بين ما كان يفعله هو ومن معه من أهل السمر والأنس مفصلا خلفية اللوحة برسم مناظر لطبيعة بهيجة تبرز كل معلم من هذه المعالم الثلاثة المحاطة بإطار عام للوحة تبرز جمال الأرض وقد غدت أقطارها مسرجة بنوار كأنه سرج أحاطت بها تحدد ملامحها وتؤطر معالمها، أما المعلم الأول داخل إطار الصورة فهو وادى إشبيلية وقد ازدان شاطئه برياض تتخلل ربواته دوحات من الشجر الملتف حتى غدت الربوة فوق الوادى كأنها لبة محوطة بعقد من كريم الأحجار ينعكس جماله على جمالها ويختلط جمالها بجماله (وهل الحسن إلا أسلاك ولبات) والمعلم الثانى (النهر) ومن خلاله يوضح الشاعر بعض أوقات لذاته، وما كان يقارفه من أفعال هو ومن معه قوامها شاعر لاه يحتسى كؤوسه على شطآن هذا النهر، يرى صورته تنعكس على صفحات كأسه وإن شئت فقل ماء النهر، فيثير فيه هذا التلاقى بين الصور نشوة القول فيقول من الشعر ما تطرب له النفوس، ثم يأخذ فى معابثة على شطآن هذا النهر مع من يهوى وربما اشتط فى الجرى حتى سما إلى الخليج، وهو المعلم الثالث الذى أخذ الشاعر يفصح عن بعض معالمه، وكيف

كان راحة يستروح فيها أهل الراح منعمين بغراس جنيات الثمار اللاتى يجدن بكل طيب على مرتاديها.

وهذه اللوحة بقدر بهجة مفرداتها وجمال مكوناتها تبعث على حزن عميق، إذ تركت وخلت من أهلها الذين حرموا من بهجتها فتجرعوا بهذا الحرمان ما تذوب له القلوب، لذلك ختمها الشاعر بما يؤجج هذا الحزن ويضاعف ذلك الأسى.

معاهد ليت أنى قبل فرقتها ∴ قد مت والتاركوها ليتهم ماتوا

وثالث المحاور التى تستلفت نظر الدارس لهذا الشعر الذى أوحت به محنة المعتمد، هو ما تضمنه هذا الشعر من أفكار ومعان جاءت فى معظمها واضحة بينة الدلالة على ما يهدف إليه الشاعر، فقد خلت ـ تقريبا ـ مما يغمض فهمه أو يعز إدراكه، حتى لا نكاد نعثر فيها على معنى يلبس على الفهم، أو يحتمل أكثر من دلالة، ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن هذه المعانى جاءت سطحية ساذجة، أو قريبة مبتذلة، وإنما الذى نعنيه أنها جاءت تجمع بين الدقة والوضوح والعمق وعدم التعقيد، تؤكد على أن الشعراء ـ والمعتمد منهم ـ حين تناولوا هذه المحنة عملوا جهدهم على تنقية هذا النتاج الشعرى من كل ما يشوب أفكارهم من السقطات التى يجب أن تزايل عنصر الفكرة فى الشعر(١).

ولا يستلفت نظرنا على الرغم من الأفكار التى طرحت فى هذا الشعر قدر ما تستلفته هذه الأفكار :

الفكرة الأولى : هى رغبة الشاعر فى أن يشرك معه فى حزنه على ما حل بالمعتمد وآله جميع عناصر الكون والطبيعة، وكأنه أراد أن يقول أنه لم يكن وحده الذى تأثر بهذه الحادثة المفجعة (ما حل بالمعتمد وآله) بل هو عنصر من عناصر الكون الذى تأثرت كل

(١) راجع التجربة الشعرية بين النظرية النقدية والتطبيق النصى: ٣١ وما بعدها.

عناصره بما حدث، غير أن الشعراء عند بسط هذه الفكرة لم يأت شعرهم من طبقة واحدة، وإنما جاء يجمع بين دقة الفن وجمال الصياغة واستقامة الفكرة، على نحو ما فصلناه فى عرضنا لأفكار هذا الشعر عند المعتمد، وعند غيره من الشعراء، وقليلا ما كان يجنح الشاعر إلى ضرب من المبالغة، وإن لم يكن ممقوتا فى مثل هذه المناسبات، إلا أنه كان صوتا نشازا يعكر بعض الشىء من جمال هذا النتاج الشعرى بما فيه من مبالغة، فى نحو قول ابن اللبانة[1]:

بكاك الحيا والريح شقت جيوبها ∴ عليك وناح الرعد باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الدجى ∴ حدادا وقامت أنجم الليل مأتما
وحار ابنك الإصباح وجدا فما اهتدى ∴ وغار أخوك البحر غيظا فما طما
وما حل بدر التم بعدك داره ∴ ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما

فقد قامت هذه الأبيات على إيراد معان مكرورة لا جديد فيها، قامت على مبالغات اتخذت من الاستعارات وسيلة لتضخيمها ، وهى وإن كانت كثيرا ما يعمد إليها الشعراء فى مناسبات مشابهة إلا أنها كما سبق أن أشرنا صوتا نشازا ما كنا نحب أن يعكر من جمال هذا الإبداع الشعرى .

والفكرة الثانية: التى كثر دورانها فى النتاج الشعرى الذى نعرض لدراسته هى المقابلة بين ما كان يتمتع به المعتمد وأهله أيام سعدهم، وبين ما آل إليه أمرهم بعد هذه المحنة، وقد مر كثير من النماذج الشعرية التى تحمل هذه الموازنات بين الحالين: حال سعدهم، وحال شقائهم، ونضيف إلى ما سبق أن أوردنا هذه المقارنة الباكية التى أبرزها ابن اللبانة حين رأى ولد المعتمد ــ فخر الدولة ــ يعمل نافخا لكير صائغ فى حانوت صياغة، فقال[2]:

شكاتنا فيك يا فخر العلا عظمت ∴ والرزء يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ∴ ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد كونك فى دكان قارعة ∴ من بعدما كنت فى قصر حكا إرما

(١) ديوان ابن اللبانة ضمن موسوعة الشعر العربى .
(٢) المرجع السابق .

صـرفت فـى آلـة الصـواغ أنملـة ∴ لم تدر إلا الندى والسيف والقلما
يـد عهتـدك للتقبيـل تبسـطها ∴ فتسـتقل الثريـا أن تكـون فمـا
للنفخ فى الصور هول ما حاكاه سوى ∴ هـول رأيـناك فيـه تـنفخ الفحما
وددت إذ نظـرت عينـى إليـك بـه ∴ لو أن عينى تشكو قبـل ذاك عمـى

وثالث الأفكار التى ألح عليها الشعراء فى تصوير محنة المعتمد، سوق هذه المحنة فى إطار عام من تقلبات الدهر بالأجواد، وغـدرات الزمان بأصحاب المكانة، وكأنهم بذلك يلتمسون مسلاة لهذه الكائنـة التى تمثل نكبة باكية تنسى ما حل قبلها من نكبات، وهى دون شـك متبوعة بغيرها من حوادث وخطوب، لكنهم صـاغوا هـذه المحنـة يوجزونها تارة وتارة أخرى يقدمونها فى ثوب تفصيلى فضـفاض ، فمن جاء تعبيره عنها موجزا فى إطار سياق عام يجمع بين محنـة المعتمد وغيرها عبدالله بن إبراهيم الحجارى وابن عبـدون، وممـن جاء حديثه عنها فى هذا الإطار مفصلا ابن اللبانة وقد تقدمت أمثلـة كثيرة تبرز هذين المنحيين.

خاتمة البحث

على الرغم مما قيل حول مدى صلاحية الإبداع الشعرى لاستخدامه مصدرا تاريخيا يمكن الاعتماد عليه، فى كشف بعض جوانب قضية من القضايا؛ فقد جاء هذا النتاج الشعرى فى شعر المعتمد وفى شعر غيره يصور عظم الخطب الذى ألم بالمعتمد بن عباد، فقوض عرشه، وأباد ملكه، واستصفى أمواله، وأصابه بغنت شديد فى نفسه وأهله. وتلك كانت أولى النتائج التى أكدها هذا البحث.

وثانى هذه النتائج وضوح الجور والعسف الذى مارسه يوسف ابن تاشفين فى معاملة المعتمد والتضييق عليه فى محبسه ومعتقله، ولا تشفع الأسباب التى قدمت تبريرا لهذا التصرف فى سوء تلك المعاملة التى أصابت رجلا كالمعتمد بن عباد، ذلك الذى بذل فى سبيل توطيد ملكه وبسط نفوذ مملكته واستقرار أركانها غاية الجهد.

وثالث النتائج التى تبرز من خلال هذا البحث، التأكيد على قدرة المعتمد الشعرية وتفوقه فى تسجيل محنته، وسوء ما ألم به.

ورابع النتائج التى تبدو من خلال هذا العمل صدق الشعراء ـ أحيانا ـ فى محبتهم لمن يبذل إليهم موفور المال ويتحفهم بجليل العطايا؛ وإخلاصهم له بعد حلول ما يعرض له من تبدل الأحوال وتغير صروف الزمان.

والنتيجة الخامسة تبدو فى هذا الأثر الضخم الذى أحدثته محنة المعتمد فأثارت فى الشعور الأندلسى لواعج الأسى مما جعل هذه المحنة ماثلة فى الأذهان يستخلص منها الدرس، وتستقرأ من أحداثها العظة والعبرة.

والنتيجة السادسة التى تؤكدها الدراسة الفنية للشعر المصاحب لمحنة المعتمد ، مدى الترابط الوثيق بين قوة العاطفة وصدق التجربة

وارتباط ذلك كله بفنية الصورة المعبرة عن قوة العاطفة وصدق التجربة، وقد وضحت هذه النتيجة من خلال الموازنة بين شعر المعتمد وشعر غيره ممن ألم بمحنة المعتمد وشغل نفسه بالحديث عنها.

وآخر ما يمكن الإشارة إليه من نتائج هذه الدراسة أن القيمة الفنية لشعر المعتمد المصاحب لمحنته تعلو فيه قدم العاطفة وتسمو من خلاله معالم الصدق أبرز وضوحا وأعلى قدرا من شعر الشعراء الآخرين الذين شاركوه فى محنته، وإن برزت هذه المعالم بدرجات متفاوتة فى أشعارهم، وإن كان قصب السبق من ناحية الصنعة الشعرية يحسب لهم فى غالب الأحيان.

وإنى إذ أقدم هذا البحث لأرجو له من الله التوفيق وأن ينال من رضى قارئه بقدر ما بذل فيه من جهد، والله الهادى إلى سواء السبيل.

قائمة المصادر والمراجع

١ - الأدب المغربى من خلال ظواهره وقضاياه ـ دكتور عباس الجرارى ـ نشر مكتبة المعرفة ـ الرباط ـ ط٣ ـ ١٩٨٦م.

٢ - الأعلام ـ خير الدين الزركلى ـ نشر دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١٠ ـ ١٩٩٢م .

٣ - البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذارى المراكشى ـ تحقيق ج.س كولان وليفى بروفنسال ـ ط٢ دار الثقافة بيروت لبنان ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

ـ البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذارى المراكشى ـ الجزء الرابع ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار الثقافة بيروت لبنان (١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م).

٤ - البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر عصر ملوك الطوائف ـ دكتور سعد إسماعيل شلبى ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الفجالة القاهرة.

٥ - تاريخ الأدب العربى ـ الأندلس ـ دكتور شوقى ضيف ـ نشر دار المعارف.

٦ - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: ترجمة محمد عبدالله عنان، القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر المعهد الخليفى بتطوان ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م.

٧ - تاريخ ابن الأثير ـ الطبعة الأهلية ١٣٠٣هـ.

٨ - تاريخ العلامة ابن خلدون ـ طبع دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ١٩٦٨م.

٩ - التبيان (مذكرات الأمير عبدالله بن بلقين) المنشور بعناية الأستاذ ليفى برفنسال (القاهرة ١٩٥٥م).

١٠ - التجربة الشعرية بين النظرية النقدية والتطبيق النصى ـ دكتور ناجى فؤاد بدوى ـ ط١ ـ دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١١ - تراجم إسلامية ـ محمد عبدالله عنان ـ ضمن منشورات مكتبة الأسرة ـ مكتبة الخانجى سنة ٢٠٠٠م.

١٢ - الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ طبع القاهرة ١٩٦٤م.

١٣ - دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ـ دكتور الطاهر أحمد مكى ـ الطبعة الأولى ـ دار المعارف ١٩٨٠م.

١٤ - دول الطوائف محمد عبدالله عنان ط٤ مكتبة الخانجى ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

١٥ - ديوان ابن حمديس ـ ضمن موسوعة الشعر العربى الصادرة عن المجمع الثقافى ـ أبوظبى ـ الإمارات العربية المتحدة ـ الإصدار الثالث.

١٦ - ديوان ابن عبدون ـ ضمن موسوعة الشعر العربى ـ الإصدار الثالث ـ أبوظبى ـ الإمارات العربية المتحدة.

١٧ - ديوان ابن اللبانة ـ ضمن موسوعة الشعر العربى الصادرة عن المجمع الثقافى أبوظبى ـ الإمارات العربية المتحدة ـ الإصدار الثالث.

١٨ - ديوان المعتمد بن عباد ـ تحقيق الدكتور/ رضا السويسى ـ دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ـ تونس ١٩٨٥م.

١٩ - ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية ـ تحقيق أحمد بدوى وحامد عبدالمجيد ـ ط١ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٥١م.

ـ ديوان المعتمد بن عباد ـ ضمن موسوعة الشعر العربى ـ الصادرة عن المجمع الثقافى ـ أبوظبى ـ الإصدار الثالث ـ الإمارات العربية المتحدة.

٢٠ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ـ أبوالحسن على بن بسام الشنترينى (٥٤٣هـ) تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

٢١ - العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف بالأندلس "يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف" ـ محمد صالح منصور ـ منشورات جامعة قار يونس ـ بنىغازى ١٩٩٥م.

٢٢ - قلائد العقيان للفتح بن خاقان ـ طبع القاهرة ١٢٩٣هـ.

٢٣ - المعتمد بن عباد الملك الجواد الشاعر المرزأ ـ دكتور عبدالوهاب عزام ـ دار المعارف.

٢٤ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ـ عبدالواحد المراكشى ـ تحقيق محمد سعيد العريان ـ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م.

٢٥ - المغرب فى حلى المغرب ـ تحقيق الدكتور شوقى ضيف ـ طبع دار المعارف.

٢٦ - ملك إشبيلية الشاعر المعتمد بن عباد (٤٣١ ـ ٤٨٨هـ = ١٠٤٠ ـ ١٠٩٥م) دراسة وتحقيق الدكتور رضا السويسى ـ دار بوسلامة للنشر والتوزيع تونس ١٩٨٥م).

٢٧ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ تأليف الشيخ أحمد محمد المقرى التلمسانى ـ حققه الدكتور إحسان عباس ـ نشر دار صادر بيروت ١٩٦٨م.